A. U. B. LIBRARY

مطبعة الاتحاد
تجاه التياتر الكبير

892.
H411u
892.73
Ha596uA

لطفي حيدر

عمر افندي

58120

منشورات . المكشوف .

بيروت * ١٩٣٧

الى التى كنت لها عزاء على الحياة

فلما صرعتها المنون

واضجعتها الترب بيدى

صارت لى العزاء على الموت

الى اختى فاطمة

مقدمة

بقلم عمر فاخوري

لا اخشى لومة لائم اذا قلت ان مؤلف هـذه القصة قد خطـا بالقصص العربي خطوات ، بل عرج به درجات ، نحو مرتبة الكمال.

... وانا ايضاً كنت اؤثر لو مهدت لهذا «الحـكم» ببيان مفصل او تحقيق مجمل ، فلا ابتديء حيث يجب ان انتهي . ولكن ما العمل وقد جاءت هذه الفاتحة كمطلع القصيدة ، عفو الخاطر والقلم ؟

ولا حاجة الى التنبيه على ان ما نعنيه بالقصص العربي هو فن من فنون الادب لايكاد يمت بصلة الى ماوصل الينا من نوادر واخبار وملاحم واساطير في كتب العرب ، ولا الحكايات سواء الطوال ام القصار التي انطوت عليها مجموعة «الف ليلة وليلة». انما نعني «القصة» بمدلولها الطريف ، المستفادة عناصره من اداب الغرب الحديثة ، حتى ليمكن عدها بدعة في ادبنا العربي على اطلاقه ، ولكنها قد تكون اوكد الوسائـل واقصر السبل الى اشراكنا فيما يدعونه بالثقـافة العالمية ، فيسمع لنا صوت في النشيد العام الذي تغيب في امواجه شتى الالحان متعارفة متآلفة .

*

في هذه القصة من سيرة مؤلفها الشيء الكثير . واي كاتب لم تكن بواكيره — زهراً وثمراً — من قطاف بستانه ، يملأ بهـا اردانه ، فاذا فرغ من ذلك البستان ، او حسب انه فرغ ، هجره وتسلق

الجدران مغيراً على حدائق الاهل والصحب والجيرة وسائر الناس ؟ اليس طبيعياً ان يكون الموسم الاول من حصاد العمر ؟ لا لقرب المتناول ويسره فحسب ، بل ان ثمة عاملا اعظم خطراً وابلغ اثراً ، هو ان الفتى في مستهل حياة الفكر والشعور يكون كالمغلوب على امره ، رهين «انانية» من نوع خاص ، تكتنفه وتملك عليه لبه وحسه ، اذ يخال ان هذه الاحداث لم تمر باحد قبله ولن تمر باحد بعده : من احب حبه ، وتعذب عذابه ؟ هل جالت هذه الخواطر في غير رأسه هو ، او اضطرمت هذه الشهوات في غير حواسه هو ، او قامت هذه العقبات في غير طريقه هو — هو دائما ؟ عمرك الله ؟ هل عرفت مثل هند وعمر افندي ؟ وهكذا يكون الفتى من تجربته الاولى الفريدة ، بل من انانيته المشتركة ، في سجن ، يحيا بها متأكلاً مجتراً ، حتى اذا ضاق ذرعا فاستطاع ان يرسلها قصيدة او قصة ، سرّي عنه كالمتنفس الصعداء . والى هذا مرد الاعتراف في النصرانية ، والبوح او خطاب «الخليلين» المردد في الشعر العربي القديم ، وكتب الاعترافات الشائعة في آداب الامم . أليس قتل عمر افندي خياله في المرآة ، ليبدأ حياة جديدة ، رمزاً الى تلك الحاجة في نفس الانسان ؟

*

لامر ما عدل مؤلف هذه القصة عن ضمير المتكلم ، في شيء من الخفر الشرقي او الكبر الذي يحظر علينا ، كما يقول في احد فصولها ، « فتح هذا الصندوق المغلق ... او هتك هذا الحرم المفعوم بلهاث الاكبد ، المعمور بالباطل والغرور الموروثين من اقدم اجيال الحياة »

ولكن المؤلف لم يتعمد ، رغم هذا ، ايهامنا ان الكلام عن رجل غريب ، وليد خياله واختراعه . كلا ، فالقصة قصة عمر افندي «البالغ الان الثامنة والثلاثين ... نراه وقد خلف الشقاء طيوفه في عينيه الحالمتين ، وترك الالم حولهما آثاراً من مساحب اذياله ...» كما يقدمه المؤلف الينا ، آخذاً بيده في رفق وعطف وحنين . ومنذ الاسطر الاولى التي تقع فيها على عبارة « وهو يذكر ... ولا يذكر فيما عدا ذلك شيئاً » من حالات طفولته ، تتبين ان العمدة في هذه القصة على «الذكرى » . اما الرسائل الموشاة بابيات من الشعر الغزل ، رسائل عمر الى هند راجياً شاكياً باكياً ، ومتفلسفاً في بعض الاحيان ، فهي «اشياء» واقعية ، الصق بمادة الحياة من الذكرى ، طرحها المؤلف في زوايا كتابه ، على عطفات الطريق ، كاشلاء الماضي . « ارجو ان تحرقي هذه الرسالة ، ولا بأس ان تضعيها في صحن السيكارة الذي تقدمينه لي ، لارى عواطفي المشتعلة رماداً تذريه في الهواء يد المرأة الناعمة.» اشهد ان هذه « صكوك » لا مدخولة ولا منحولة ، صحيحة ولا اقول صادقة ، بما عليها من طابع الفتوة الساذجة ، وبما فيها من « مضخمات الصوت » على السواء . واذا كان في طبيعة الانتاج الادبي ان يحمل الاديب على استغلال تجربته وذكرياته يوم يكتب للناس ، فان ما في هذه الرسائل «الاصلية» من بيانيات وخطابيات دائرة على محور العواطف الطنانة ، يحمل على الظن ايضاً انها كتبت في وقتها لتنشر فيما بعد ، وهي من غرائب المصادفات بين حياة الادب وادب الحياة . (اريد الاشارة الى ما في طبيعة « الحادث الادبي » من عجب عجاب ولم اتعمد رد اي عجز على اي صدر، فهو من عمل البهلوان.)

اجل، ان العمدة في هذه القصة على الذكرى ، كما اسلفنا القول، ذكرى احداث وحالات نفس شغلت حيزاً من الزمان والمكان. ولكنها ليست بالذكرى «الحام» لا يهمها الا ان تفرغ جرابها كما تيسر وتنفض كفها ، حينما تكشف لنا عن اخيلة ضاوية الجسم، باهتة اللون، خافية الجرس ، تكون بالقياس الى الحقيقة الباطنة كرجع الصدى بالقياس الى الاصوات ، او كالظلال بالنسبة الى معالم الاشياء . بل هي الذكرى اللبقه الصناع ، أطالت التفكير فيما وعته ، ولجت في تقصيه ، وامعنت في تحليله ، حتى استشفت دخيلته ونفذت الى جوهره . فاذا في ايدينا قصة تنبض حياة ، وتفيض ضياء فتبهر وتروع ، لا حكاية تحكى او خبر يروى ، فنتقبله بشيء من الرضى وكثير من عدم المبالاة ، ثم يعود الى اصله اذ يعفي عليه النسيان .

ولا ينصف المؤلف ولا يفيه حقه من يغفل الناحية البسيكولوجية من كتابه ، اعني درسه الاشخاص ، ووصفه ما ينشأ ، متعاقباً او متلازماً ، من مختلف اطوارهم في تلك «الازمة» التي عقد حولها قصته، وعنايته بتصويرهم في حقيقتهم الظاهرة والباطنة على السواء . هؤلاء اناس من لحم ودم، لا من حبر وورق ، احياء جدّ احياء، يتحركون ببواعث طبيعية لا ميكانيكية ، وكأنما تصرفهم يد الاقدار . ويزيد متعتنا بالتعرف اليهم اكتناهنا العوامل البعيدة والاساسية في حياتهم، بعد انتباهنا الى العوامل المباشرة او الطارئة . وكأنها اخيلة الظل سئمت هذا الوجود المصطنع على الستارة البيضاء ، تصرف امورها فيه اصبع خرقاء ، فخرجت كلمح البصر من الستارة ، وانطلقت بشراً سويا ، واخذوا يتسللون في القاعة بيننا ، ونحن شهود . وهو

سحر الفن هو ، يؤتيه الله من يشاء من عباده .

*

وددت لو يتسع هنا المجال لدرس شخصية عمر بطل هذه القصة ، او شخصية خصمه وقرنه هند ، في نضالهما المستمر ، غياباً ووجاهاً ، حتى الصفحة الاخيرة من الكتاب ، بل بعدها (اليس هذا الكتاب نفسه من اطوار ذلك النضال؟) ضاربا الامثلة ، معززة بالادلة على براعة المؤلف في تصوير اشخاصه ، ورسم خطوط الوجوه ، ناهيك النفوس. ولكن هذا التصوير لا يبرز في هذه القصة دفعة واحدة ، بل ينشأ ويكتمل في سياق الحديث ، وان الخطوط لتزداد دقة ووضوحا على مر الايام وكر الاحداث ، فكأنها الاشياء تخرج من خفاء الظلام رويداً رويداً كلما تعالى النهار ، بما يشبه البعث كما يقول خليل مطران شاعر العصر في قصيدته العصماء « المساء » . ولكني لا اجد بدآ من الاشارة الى بطل الرواية الثالث الذي لم يسمه المؤلف باسمه رغم انه ليس دون عمر وهند شأناً . كيف ؟ وهو العملاق الماثل لابصارنا في بداية القصه ، مكشراً عن انيابه قرماً وسخراً ، يقين ان الغلبة له في الختام ، وان لكل شيء نهاية الا هو فلا ينتهي ظفره — اعني الزمان . الاكول الشروب ، الخبوط اللبوط ، غراب البين ، الزمان. المسيطر على الكون وانسانه — العالم الاصغر . عند قدميه تتحطم الشهوات الجامحة ، وفي قبضته تنطفيء العواطف المضطرمة . نحس اثاره في خور القوى وفي غضون الوجه ، وفي الزوال والانهدام ، وفي النسيان الذي ندعوه تأدبا او تشاعراً : العزاء . وما العزاء الا موت جزء منا ، موت عاطفة كنا لا نحيا الا بها ولها .

الم نعلم ، منذ تعرفنا الى هند ، انها « سلخت الرابعة والثلاثين ، والمرأة الحسناء تجتاز في هذا العمر ـ كما يقول المؤلف ـ اخطر ادوار حياتها ؟ فهي على القمة تلقي نظرها على الماضي فتود لو ترجعه الى قبضة يدها ، وتتطلع الى المستقبل فترى لجة الزمان تبتلع ايامها ، وتبتلع معها شبابها وجمالها . فتقف مذعورة لا تريد ان تتقدم خطوة واحدة . ويجتمع حب الحياة الى خوف الفناء ، فتدعو اليها كل حيويتها ، فتتجلى رائعة من روائع الوجود ، وتود لو يقف الوقت عن الحركة ، وينعدم الزمان ، وينفرج قلبها ليسع في منحنياته وشغافه كل خلجات الحياة . »

كبرت كلمة جرى بها قلمي اذ قلت ان المؤلف لم يسم ذلك البطل باسمه . وهو قد ذكره باسمه في بضعة اسطر مرتين ، وكنى عنه مرة ، وذكر ابعاضه : الماضي والحاضر والمستقبل ، ووزيره العمر ، كأنها بطانة هذا الملك الجبار . فالاصح ان يقال انه لم يسم بطولته .

وكأنما اراد المؤلف ان يعتذر لعمر عن غرامه بهند وهي على شفير الهاوية ، فقال انه « أخذ بجمال فاتنته قبل ان يعمل في جمالها هذا التحليل النفسي . » ولعله عنى ايضاً التحليل الحسي الذي مافتئ الزمان يعمل سلاحه في قسماته . وفي هذا التحليل المزدوج ، الظاهر المادي في شخص الحبيبة ، والباطن الروحي في نفس العاشق ، كلمة السر في القصة ، ومفتاح باب الفن فيها .

وفي فصل آخر من فصول الكتاب ، اذ عمر وهند في ربيع الحب بينما الطبيعة في خريفها « سقطت ورقة توت صفراء في حضن هند ،

فاخذتها وتأملت فيها ، ثم رفعت بصرها الى الغصن الذي يعلوها ، وحاولت عبثاً ان تتبين موقعها . ولما ردت بصرها اليها قذفت بها الى الارض . فقال عمر ان هذه الورقة العليلة الصفراء توحي الي اشياء . فقد احسست لوقعها على الارض صدى حزيناً في نفسي كانهدام الحياة . ما الفرق بيننا وبين الاوراق ؟ تلك تبعثرها الريح ونحن تبعثرنا المنايا ، غير انها تعود في الربيع القادم في حلة من الشباب الرائق ، اما نحن ..»

فارتاعت هند وقطعت عليه حديثه النذير بالشؤم قائلة : «اصمت ، اسكت ، لا اريد ان اسمع شيئاً عن الربيع والموت ، عن الماضي والمستقبل ، بل حدثني عن الحاضر » .

وقبيل ختام القصة في آخر حوار بين عمر وهند ، نسمع الفتى الغر يقول للمرأة الناضجة « وقد تجمعت الاهانة زبداً على شدقيه فرمى به وجهها : اغربي عني يا امرأة ! ان الاربعين سنة تجتمع كلها في وجهك الان ، فينهزم امامها سحر جمالك ، وتظهر غضونك وتبدو بشاعتك . لقد مات الماضي فما عدت ارى عليك رائداً من طيوفه ، واقفر روضك فلن يرف جناحي بعناه بعد اليوم .» وكأني بالزمان سخر هذا الافندي ليدفع بالمرأة المسكينة الى قرار الهاوية ، وكأن في سنة الكون ان يجهز علينا آثر الخلق لدينا ، ليكون ذلك ابلغ في نكاية الطبيعة العاتية .

*

لقد عمرت هذه القصة باشخاص آخرين ، من معلم الكتاب الذي « غرق رأسه في عمته الى الاذنين ، حتى اختفت قرعته الا شعرات في مؤخرة رأسه كفلول المعركة ... يجلس قرب الباب ، الى جانبه

نعله ، يليه نعال الاولاد » ، فابي قاسم البستاني في قميصه المثني الصدر المسبول الى الركبتين ، وسراويل زرقاء شد عليها بزنار من القطن الاسود ، على رأسه لبادة سوداء ، وفي قدميه احذية مسمرة ، عرفناه ليلة زفافه وهو يتزوج ثانية « برضى ام قاسم التي لم تلد الا ولداً واحداً على ان الفلاح بحاجة الى اولاد يعينونه على اعماله الكثيرة ، في الفلاحة والزراعة وبيع الغلة وغير ذلك » ، الى المومس « نينا » التي لقيها عمر وقد انقلبت برقية من رقي الحب ملاك رحمة وطهر ، كما حدث لاحدى اخواتها في قصة دستويفسكي : « الجريمة والقصاص » . لقيها فاذا بها قد لبست رداء من الحرير الساتان الاسود ، ولم تتزين ولم تتطرّ ، فبدا وجهها بلونه الطبيعي وقد علته غلالة من الهم ، اما عيناها فكأنهما لاصقتان الى حلم بعيد تغيمان اذا انقشع وتطمئنان اذا بقي لهما . وكان في وقفتها شيء من الكبرياء المتهدمة توحي احترامك للسيدة الواقفة امامك ، وتوجب عطفك عليها » . ولم اذكر الا نفراً من اشخاص هذه القصة العامرة بهم وبغيرهم ، في تلائم وتناسب بالغين حد الاتقان .

*

بقي ان اقول كلمة في اسلوب الكتابة .

« نهض عمر من فراشه وتطلع الى اخيه ، فوجده في غفوة من الحياة ، يحلم تحت دفق النور ، ليس توقظه جلبته . وكانت الاشعة المترجرجة تزيح عن وجهه كآبة الحلم ، فتكشف عن محيا امتلأ شبابا وصباحة ، فاذا انحسرت رأيت كأن رؤى جميلة وقاتلة تتجمع في معاقد اهدابه فتهزها ... نزل عمر الى الحديقة فوجدها لا تزال مخضلة بانفاس الصباح ، وقد حشا الورد اكمامه من درر الطل الراعش وضحك

من بلاهة الاغصان الباسقة الجافة . واخذ البلبل بصوت خافت تكاد تسمع لهاثه في الحانه ، ينثر اغانيه في جوانب الحديقة ، ينتقل من فنن الى فنن ، حتى اذا حط على الوردة الحمراء ارتفع صوته بالغناء يمازجه شجى تحس فيه كأن قلبه على لسانه . وما زال صوت الصادح يرتفع حتى ملكت روعته جوانب الحديقة النائية ، ثم انقطع فجأة وسقط الطائر الصغير جثة هامدة الى الارض ... واخذه عمر فاذا في جنبه المهيض جرح يدمى ، فتجمع الاسى في عينيه دمعة هي كل ما يملك ، لكن الدمعة الحارة الطافية لم تنطلق ، لان رصاصة انطلقت في الغرفة حيث ترك اخاه الجندي منذ هنيهة ، ترافقها صرخة الم : انتحرت ! »

ومن فصل آخر :

« هل اتى عليك هذا الاسراء الذي لم تحس له جلبة ، ولم تتغير عليك فيه المشاهد ، حتى اذا اخذ النوم يتسلل من جفنيك ، طافت عليهما رؤى اشتبهت عليك ، فرحت تتحسس جوانب فراشك ، فاذا هي اشياء غير ما الفت ، فتعود تدور بعينيك على ما حولك ، فترى الاشياء تخرج من ظلالها وتسترد الوانها ، فتعرف انك في عالم جديد لا عهد لك به من قبل ، فتضطرب » .

هممت ان اقول كلمة في اسلوب الكاتب ، فاذا بي اقدم مثالين هما قطعتان من البيان الرائع في عمقه وانبساطه ، تتزاوج في طوايا كلمه المتخيرة الطبيعة والعاطفة ، وتجاري جمله الرائقة الحياة والحركة في الكون وفي النفس ، محاطة بهالة من نورانية الشعر الابريز . وقد يكون خير ما في هذا الكتاب اسلوب مؤلفه .

من حسن طالعي انني سئلت تقديم طرفة نادرة في القصص فبادرت عن طيب خاطر ، وانا اعدها زلفى الى الفن وفضلا من الله ، اذ من حسن طالع الادب العربي في هذا العصر ، وفي هذا القطر ، ان يشهد نشأة كاتب كمؤلف هذا الكتاب ، فهو وامثاله حقيقون ان يبلغوا بالقصة الحديثة مرتبة الكمال .

عمر فاخوري

عمر افندي

في الكتاب والمدرسة

هو الآن في الثامنة والثلاثين من عمره ، بوجه لا ينم هذه السن ، لكن الشقاء خلف طيوفه في عينيه الحالمتين ، وترك الالم حولها اثاراً من مساحب اذياله ، فترى فيه شباباً مطمئناً ، لا يكاد يتوثب حتى تنغر جراحه .

ولد عمر في مدينة بعلبك التاريخية في السنة ١٨٩٨ من ابوين لا يملكان ثروة ، وفي بيت كريم المحتد ، وكانت العادة ان يرسل الولد الى الكتاب ليدرس القرآن ، واراد له ابوه ذلك ، فبعث به الى الشيخة ام حسن ، وهو يذكر انه كان يجلس الى قراءة الف باء مع اترابه ، متربعين على الحصير في الشتاء ، وعلى الارض اذا اقبل الصيف واشتدت الهاجرة ، ولا يذكر فيما عدا هذا شيئاً ، أكان يحفظ من من الف باء ام لا يحفظ . وكانت ام حسن تتقاضاه «الخميسية» وهي اجرة الاسبوع يدفعها التلميذ يوم الخميس قبل عطلة

الجمعة ، وشيئاً غير هذا في الاعياد ، وكلاهما زهيد وتافه . والشيخة تعيش اسبوعها مما يأتيها به هؤلاء الصبية ، فهو وان كثر لم يتجاوز «البشلك» .

وكانت ام حسن ناعمة البال ، تصرف قليلا من الوقت على الاعتناء بالتلاميذ ، حتى اذا انقضى اجل معلوم لايتجاوز الاسبوعين ، قفز واحدهم الى «عم» فاستحقت ام حسن ، هدية اما دراهم او شيئاً من مؤونة البيت مع كثير من الشكر . ويظهر ان عمر كبر على كتاب ام حسن ، او انه لم يجد فيه الفائدة التي كان يرجوها له والده فبعث به ابوه الى كتاب اعلى درجة ، فعلمه شيخ لا شيخة ، وعلى يد السيد محمد سيختم القرآن بمدة قصيرة . ومن الحق ان الكتاب الجديد يختلف عن السابق ، فتلاميذه اكثر عدداً وفي زواياه مفارش محشوة بالخرق العتيقة تكتلت فيها هناك وهنا ، على حصر تكاد لا تتميزها عن الارض لطول عهدها بالالتصاق اليها ، وقد تربع السيد محمد ، على مطرح اكثر سمكا من غيره ، واغرق رأسه في عمته الى الاذنين ، حتى اختفت قرعته ، الا شعرات في مؤخرة رأسه كفلول المعركة ، واتخذ مقعده قرب الباب ، ليسهل عليه الدخول والخروج

متى يريد ، والى جانبه نعله ، يليه نعال التلاميذ ، وللموسر نعل ، اما الفقير فله قبقاب .

بدأ الشيخ بالدرس فارتفعت اصوات التلاميذ معاً بالبسملة ، واخذوا بترتيل الآية الاولى ، يحنون جسومهم مع كلمة وينهضونها مع كلمة ، فتراها جائية ذاهبة ، فاذا ضرب الشيخ بقضيبه على الارض ، توقفوا عن الاهتزاز ، واخذوا قسطهم من الراحة .

وكان عمر ذكياً فاعجب به الشيخ وضرب له اجلا قصيراً يختم فيه القرآن ، والشيخ يرغب في هدية ينالها جزاء تعبه وكلما دنا الاجل دنت الهدية من يديه ، ومضت ثلاثة شهور ، فاذا عمر يختم القرآن عن ظهر قلب ، ذلك ما قاله الشيخ لوالده .

ومن الحق ان عمر كان يستظهر بعض السور الصغيرة ، ولكنه ينسى بعد الختم ما كان يستظهر .

واحتفل الكتاب بختم عمر القرآن ، فخرج صبيته صفوفاً ، كل صف من اثنين يعقبهما اثنان ، ومشى عمر في المقدمة ، وعلى رأسه طربوش احمر ، ربط اليه رش من الفضة ، يختال في غنباز من الحرير المقلم خيط خاصة لهذا اليوم السعيد ،

وجاؤا الى بيت عمر فأنشدوا :

يا بدر الشام بلغ سلامي
الى محمد خير الانام

وزع عليهم الملبس ، ورجعوا ادراجهم يحملون الهدية ، قطعة من الديما ، تصلح غنباز لقامة الشيخ القصيرة .

وانتقل الى المدرسة الرشدية يقطع مراحلها في رأس الصف ، ولم يمر بحادث مهم ، وهو يذكر ان رقمه كان عشرة وبالتركية « اون » وكان التلميذ يدعى برقمه دون اسمه وبالتركية ، وان هذا الرقم ما يزال مدوناً على بعض الكتب التي نالها جائزة .

وكان كثيرون من انسباء عمر يتلقون علومهم في دمشق وبيروت واستانبول ، ومنهم من كان في اوروبة ، وقد حملت العدوى عمر على اللحاق بهم .

وكان العرب يطالبون بالاصلاح ، وكانت حركتهم ترمي الى مطالبة العثمانيين بمنح الولايات العربية استقلالا اداريا ضمن نطاق الدولة ، وكان بعض الشباب المخلص يتكلمون همساً بفكرة الاستقلال التام ، والانفصال عن الترك ، وكانت الدولة العثمانية ترغب في تهدئة النفوس ،

والعالم تضطرم تحته مواقد نار الحرب ، ففتحت مدارس تلقن العلوم باللغة العربية ، فكان في دمشق المدرسة السلطانيـة وكان في بيروت مدرسة مثلها .

التحق عمر بمدرسة دمشق وعلى رأسها مدير ممن قـدر لهم فيما بعد ان يخدموا القضية العربية خدمات جلى . وكان الشعور العربي يفيض على المدرسة يحميه المدير ويوطئ له ، وكان طبيعياً ان يتملك هذا الشعور عمر في حداثة سنه .

وانفجر بركان الحرب العامة ، فاذا الخدمة العسكرية تقتنص شباب العرب المنور ، واذا دمشق تحفل بروح الشباب الوثاب ، من هؤلاء الجنود الغضاض ، يتدربون على الجندية الخشنة ، ليدافعوا عن ارض الوطن المهددة بالفتح ، وكأن ويلات الحرب والاقتراب من الموت ، نبهت في هذا الشباب شعور الحياة الساجي ، فاشتدت فيهم عاطفة العروبة ، ونمت الى جانبها ، بفعل الطبيعة ، فكرة التخلص من نير الترك ، فراحوا يرون في الدفاع عن بلادهم دفاعاً عن حوزة الترك وشداً في عضدهم ، فكانوا شوكاً في جانب الجيش لا يطمئن اليه ، وباتت قيادة الجيش منهم على حذر ، واخذت تعمل على تبديد شملهم وباتوا وهم يرقبون الفرصة السانحة لخدمة

الوطن .

وما هي الا سنة حتى تغير حال المدرسة . فطلب مديرها العربي للخدمة في الجيش ، وأبدل به مدير تركي . وانتقلت بالتلاميذ من حي «ستي زيتونه» الى باب توما ، الى بناية للراهبات ، كانت مدرسة للبنات فصادرتها الدولة ، واتخذت منها مكاناً لمدرستها بعد ان تركت مؤخرها للاخوات .

اشترك الترك في الحرب العامة ، وانحازوا الى جانب الالمان . وهددت اطراف المملكة التي تحوي البلاد العربية بالخروج من ايديهم ، وتنبهت فيهم فكرة « التركية الخالصة » بعد ان نفضوا ايديهم من العناصر الاجنبية عنهم كالعرب والارمن والروم ، فاخذوا يعملون على اضطهاد هذه العناصر وتقتيلها وترحيلها ، ولم يقتصر عملهم على الساحات العاملة ، بل تعداها الى المدارس ، ولكن بشكل اخف .

ويذكر عمر انه جوزي مرة ، بحجزه في المدرسة يومي الجمعة من اسبوعين متواليين بـ «ايكي اذنسز بلا عفو» لرده على تفقد معلم اللغة التركية — وكان يقوم بالنظارة الليلية غالبا — بكلمة « لبيك » عوض « افندم » ويذكر انه تقبل

الجزاء نفسه و «بلا عفو» ايضاً لزعم المدير انه لم يحيه التحية الرسمية ، عند مروره من مكان الى آخر في المدرسة ، وكان يمر في اليوم الواحد عشرين مرة او اكثر ، وتنكي عمر « بلا عفو » ولولاها لكان يمكنه ان يفتدي الجزاء «بامتياز» ولكان يخرج يوم الجمعة الى المدينة ويتخلص من الاسر بين جدران المدرسة السوداء ، ولم يكن الليل باهدأ من النهار ، ففي دراسة بعد العشاء ، وهو وقت خصص للمطالعة من السابعة الى التاسعة ، كان عمر يتلهى بقراءة الكتب العربية وكان كلما جاء بكتاب جديد حجزته الادارة عنه وعاقبته بالحبس ، فاذا قام الطلاب الى نومهم توزعوا في قاعتين خصصت الواحدة بالكبار والثانية بالمراهقين . فاذا امتد الكرى الى العيون وعقد اهدابها باصابعه ، تيقظت في المدير «وصفي» شهوانيته ، فراح يدب الى قاعة النوم ، ينتقي منها الغرائق ، وكان كثيراً ما يفسد عمر عليه عمله ، اما بتساعله ، او بابدائه حركة تدل على انه يقظ يرقب ، حتى اضطر المدير لنقله الى القاعة الثانية وتهديده بالطرد .

واشتدت العداوة بين عمر والمدير ، ولكن عمراً كان يتمتع بعطف اساتذته وبمحبة الخدم الذين كانوا يعرفون

لنسيبه المدير السابق يده عليهم ، وتعاون عمر والخدم على وصفي فحملوا الوالي خلوصي بك على ان يأتي المدرسة ذات ليلة ويفاجئه بين الغلمان والكؤوس . اطارت هذه الحادثة « وصفي » بالرغم من كون خاله من زعماء الاتحاديين ، وصارت المدرسة تدار من قبل « شفيق » المدير الثاني وكان تركياً حقوداً .

كانت الصبغة التركية ملكت المدرسة، بعد ان تركها قسم من التلامذة النابهين والتحق بكلية « صلاح الدين » التي اسسها جمال السفاح في القدس ، وابعد عنها بعض الاساتذة الذين يناصرون الفكرة العربية ، واخذ المدير يعمل على التنكيل بعمر . وفي ذات يوم من السنة ١٣٣٢ التأم مجلس المدرسة وطرحت قضية طرده فيما طرح من البحوث ، ويظهر ان المدير لقي معارضة بالطرد القطعي فانفرط عقد المجلس دون ان يقطع بالامر ، وجاء استاذ التاريخ ينصح عمر بترك المدرسة بالاذن ، قبل ان يستفحل الشر ويستحيل دفعه .

وفي هذه الآونة كانت الحكومة تعمل على ترحيل العائلات السورية النافذة الى الاناضول ، وكانت عائلة

عمر فيمن تناوله النفي ، ذهب عمر الى وكيله يقص عليه خبر طرده الاسود ، وانه لا يزال هنالك مجال لاتقائه باخذ الاذن ، فارسل الوكيل ان والدة عمر مريضة خطرة ، وانها تطلب ابنها لتراه . وراح عمر يحمل كتاب الوكيل فقابل مفتش المعارف وكان يعطف عليه ، فاسر اليه هذا ان يخرج بسرعة من دار الحكومة ، وان لا يرجع اليها ، وان الاذن يصله الى المدرسة ، ورجع عمر مطمئناً فاذا بالمدير يدعوه اليه ، حتى اذا صار الى حضرته ، قال له بلهجة ملوءها التهكم والحقد ، اعطيتك اذناً ابدياً ، فضب على اشيائك .

اقلت عمر عربة الى دائرة الشرطة ، وبعد اسئلة اجاب عليها باختصار ، تلطف مدير البوليس وقبل منه كفيلا ريثما يلتحق باهله الى المنفى ، وعبثاً حاول البحث عن الكفيل المنشود ، ففي تلك الساعة السوداء ، كان الاب ينكر ابنه ، والصديق يهرب من صديقه . ولما عجز اخيراً عن تقديم الكفيل ، حجزوا عليه في اوتيل القدس قبالة دائرة البوليس ، وبعد ايام ثلاثة كان في بعلبك .

وكان سليم افندي مفوض شرطة بعلبك صديقاً لابي

عمر ، انقذه من النفي ، وعرف عمر انه لم يطلب للنفي ولكن
حقد « شفيق » عليه نفذ فيه بحكم اقوى من الطرد واقسى،

بين الجند والعشائر

كانت بعلبك في هذه الايام مقراً للواء الثاني عشر وكان يكثر فيها الجند احياناً حتى تكاد تضيق به، يقيم في الثكنة الموجودة بين البساتين ويحتل الابنية الكبرى من المدينة، وفي معسكر انشأه شرقيها اخذ قسما من المقبرة وقسما آخر من البيادر، وكان مبنياً من الاخشاب المصفحة بالحديد، مقسما الى بيوت قام بعضها الى جانب البعض الاخر بانتظام، بينها طرق، وامامها جنائن نصبت فيها اشجار السرو والصفصاف والصنوبر، وزينت باشكال من الورود تتشابه وتختلف، وانقسمت هذه البيوت الى محلتين تفصل بينهما طريق فسيحة اقاموا في وسطها ثلاثة احواض جروا اليها مياه اللجوج العذبة، يستقي منها العسكر، ويقضي حاجاته، ويسقي دوابه.

وكأن هذا العالم المنعزل بروحه عن حياة الشعور واللذة ، والذي لا يغمض فيه جفن للجندي ، الا على اشباح الحراب والبنادق ، وان نأى عن ساحة الحرب ، اراد ان يلطف من قساوة العيش العسكري ، او يروي رغبات الترف الجائشة في قلوب ضباطه ، فاقام من وراء هذه المساكن بركة تطفر المياه من وسطها ، فترتفع في الفضاء ، حتى اذا حاذت مستوى المصنع المستدير ، المشيد بالحجارة البيضاء الى علو ستة امتار ، هبطت يوشي رشاشها وجه البحيرة الهادىء بفقاقيع تتسع دوائر ثم تتلاشى ، او تنطفىء للفور ، وسيجوها بحواجز من الصفصاف ، يقوسون الغصن ويغرسون طرفه في الارض ثم يضعون عند رأس الاول رأس الغصن الثاني الى ان ينتهي محيط الدائرة ، فاذا جاء وقت الربيع ، ونبتت قضبان طرية على الغصون ، ورأيت ظلالها تستحم في الماء البارد ، والشمس تلفح حرارتها ، اخذ بلبك هذا المنظر الفاتن ، فاذا مالت الشمس عن كبد السماء ، اخذ الضباط يتوافدون على البحيرة حتى تمتلىء بهم جوانبها الخضراء ، فيعبثون ويلهون .

حقاً ، ان حياة الجندية الجافة لا يعرفها هؤلاء الذين

يعيشون بعيدين عن ساحات الوغى ، لقد كان اللواء في بعلبك مدعواً لتأمين الارزاق للجيش ، او قل للاقسام القريبة منها ، فكان يجبي الحصة العشرية عيناً من الحبوب الناتجة ، ولكنه كان يجبيها ضعفين وثلاثة ، فيرهق الملاك والمزارع الذي لا يجد بين يديه على بيدره ، بعد استيفاء الحصة العشرية ، ما يعوض عليه بذره ، ويقوم بتسديد الضرائب الاخرى التي لا مهرب من ادائها .

هذه كنيسة الكاثوليك قد اتخذت حاصلا للغلة فسكتت اجراسها الرنانة ، وضبط الجامع ايضاً وعطلت ساحته من المصلين ولم يعد صوت المؤذن الجميل يخرق احشاء الصباح السادر داعياً البشر الى ذكر الخالق . ولم تكن الاغلال وحدها عرضة للمصادرة ، فان هذه الجائحة الحربية ، كانت تجرف كل ما تجده من انعام واموال ، فالبقر والمعزى والجمال والخيل ، حتى الحمير ، والمحظوظ من يبقى له شيء يستعين به على اطعام عياله ، لقد ارتفعت اسعار الحاجيات ارتفاعاً فاحشاً ، وغزا الجوع البشر يفتك فيهم فتكاً مريعاً ، وبقيت لقمة الجيش مقدسة لا تجرأ الايدي على الدنو منها . ولكن هذه الاموال تقدسها ايدي العامة المزيلة من الجوع ، وتحترمها

نفوسهم الخائرة من الجبن ، كانت تمتد اليها ايدي الضباط والموظفين بالنهب والسرقة ، ويبذرونها على موائدهم جزافاً بين الكاس والطاس او يرمونها تحت اقدام الغواني اشباعاً لشهواتهم الجامحة ، بينما الجندي العامل يئن من الجوع ويرتجف من البرد .

لقد كان الموت ارأف بالجنود المساكين من اسيادهم ، فكان يقبضهم اليه بالعشرات ، وكانوا هم يسهلون على الموت مهمته او يوفرون على الاحياء الم الحياة ، فيقذفون بهم احياء امواتاً الى بئر حفروها بالقرب من « قبة دورس » تتصاعد منها الارواح الى السماء مختلطة بروائح الجيف النتنة تشهد عليها اعمدة القبة الثمانية ولا تتبرم ، تلك كانت نهاية الجنود الذين سلموا من رؤوس الحراب ورصاص البنادق فاودى بهم الجوع والعري والحمى .

لم تكن الحالة لتطاق في بعلبك ، فاعتزم ابو عمر الانتقال بعائلته ، الى قرية تبعد عنها ثمانية كيلو مترات الى الشمال حيث يملك بعض العقار ، فانتقلوا ، وكان اتصالهم بالمدينة موفوراً لقصر المسافة بينهما ، لكن مكثهم لم يطل لان اخا عمر الاكبر كان جنديا ملزما على البقاء في المدينة

لاداء الخدمة العسكرية ، ولم تكن الحياة في القرى اهدأ منها في المدن ، لانها عرضة لعبث الجند ، ومطرح لفوضى التحكم ، فاذا جاءها الدركي في السلم ليبلغ رسالته ، لم يرض الا ان يكون طعامه ديكا مسمناً قد يكون كل فرح دجاجات القروي المسكين ، فكيف بها في الحرب .

يعيشون في قضاء بعلبك عيش العشائر التي لم يعرف النظام اليها سبيلا ، عشائر هي بقايا الحكم الاقطاعي ، غمرها شعور التمرد ، فابتعدت روحها عن قبول القوانين ، ولم يكن هذا التمرد على القوة الظالمة ، او نزعة استقلالية فهم اشد الناس بعداً عن هذه الصفات السامية ، وانما هو في مثل الانطلاق الكائن في حياة البداوة ، مكنه فيهم مراس السيوف والرماح والخيل ، وقواه وعورة الارض ، فرأيتهم اتخذوا من الانجاد قرى لهم ودساكر وتجانفوا عن سكنى البقاع المنحطة . ومن طبيعة هذا العيش ان ينمي فيمن يألفه غريزة الاعتداء ، فاذا مرت جلبة من الاغنام في طريقها الى الجنوب ، الزموها لدفع الاتاوة ثم عادوا يسرقون منها في الليل ما وكل اليهم حراسته في النهار .

وكانت كثيراً ماتؤدي هذه الحوادث وامثالها لاضطراب حبل الامن ، فتهتم الحكومة وترسل خيالتها تطارد السارقين ، ويفر هؤلاء من الاصطدام بهاوهم يحترمون هيبتها ويحاذرون بطشها وتعود الخيل منتفخة البطون وقد جاست القرى الامنة ، ويعود اولئك الى حالهم الاول ، فما جاء الوقت الذي نتحدث عنه ، الا وفي البلاد من هؤلاء اشقياء استفحل امرهم ، اتقنوا الرمي بالرصاص وامعنوا في التقتيل والنهب حتى خشي الناس شرهم المستطير ، وما زالت للحكومة هيبتها في هؤلاء الى ان خرج عليها رهط من الشباب المتعلم .

حاذر الترك ان يكون العرب في ديارهم عونا للفرنجة عليهم ، فعملوا على تقتيلهم وترحيلهم باساليب شتى ، ففي الوقت الذي كان رجال العرب يعلقون على اعواد المشانق في بيروت ودمشق ، كانت العائلات العربية في مختلف المدن السورية في طريقها الى الاناضول تسير الى المنافي التي اعدت لها ، وقد انصاع كثيرون لهذا الترحيل تجنباً لبطش الجيش ، واحتفاظاً بحرمات النساء ورعاية للاطفال ، وعده نفر قليل ظلما لا يحتمل وآثروا القتل فوق صخور

الوطن العزيزة ، على الموت الوضيع في البلد الغريب . وكان من هذا القليل عصبة جريئة اعتصمت في جبال بعلبك ، ومن عائلة عريقة الوجود فيها .

كنت ترى الى الشباب الذي اعتاد رطب العيش بين الماء والزهر ، يتوسد الحجر ويلتحف السماء ، والى تلك القلوب التي دلهت منها فنون باريس ، واخذ بها سحر استمبول تقسو حتى لتصير اشد من الصخر على احتمال العواصف ، كانت تذهلها الزهرة الذابلة ، فصارت لا يذعرها الدم المهراق . الله في هذه النفوس كيف تتغير ، ثم تستقر كأن ليس بينها وبين ماضيها صلة ، ثم ترجع الى حالها الاولى اذا اريد لها ذلك ، وربما كان هذا سر الطمأنينة الى الاقدار ، او العجب في نفوس تعلو على الاوضاع من غير ان تنسلخ عنها ولكنها تسعها جميعاً .

اخذت مفارز من الجيش تتعقب اثر هذا الشباب الثائر ، فتلاقوا في معركتين حالف النصر فيهما الثائرين ، وكان من نتائجهما سقوط هيبة الحكومة من النفوس ، وتجرؤ الاشقياء على منازلة قواها اينما تلاقوا .

استفحل شر العصاة حتى كاد يمتنع ارتياد الجبال على

الجيش ، فعمدت الحكومة الى البطش ، وشكلت ديواناً حربياً في بعلبك ، واخذت ترمي اليه بالضحايا ولكنها ضحايا ضعيفة مستسلمة من القرى الامنة ، اخذت على الشبهة ، وفتحت بعلبك المروعة اجفانها ذات يوم على اربع عشرة مشنقة تدلى منها اربع عشرة جثة صفراء ملأت جانبي الساحة بجلال الموت ، وتجهم وجه المدينة التاريخية من رهبة الظلم ، وسرت في القلوب قشعريرة الخوف ، ورددت الصخور دوي الفاجعة ، فمد الثوار بايديهم الى روءوسهم يتلمسونها ، حتى اذا وجدوها في امكنتها اقسموا على الاحتفاظ بها واقسم جمال السفاح على اقتطافها مهما كلفته من عناء .

اشتدت حاجة الحكومة للخطوط الحديدية ، لنقل الجيش والذخيرة ، واعوزها الفحم الحجري ، وسد عليها الثائرون المنافذ الى الحراج ، وكانت الجبهة الجنوبية مهددة بالاكتساح ، فرأت ان ترجع الى الملاينة ، فعفت عن الثائرين والعصاة . واخذت الفوءوس والمناشير تعمل في الحراج الخضراء ، تنزع في كل يوم عقدة من تاجها تتحول الى شرار ودخان ترسلها افواه مواقد القطر السوداء الصافرة الى ان اصبحت الجبال جرداء .

عود الى البيت

ترك اهل عمر القرية مع آخر عناقيد الكروم ، وكانت يد الخريف تمتد الى الاوراق الخضراء فتصفر تحت ملمسها ثم تتساقط ، وكان هواء الجبال يحمل في الامسية والاصباح ، انفاس الشتاء باردة متثاقلة ، وكان اخو عمر جندياً يقضي خدمته في الثكنة الكائنة غربي المدينة ، التي يرجع عهدها الى ابراهيم باشا المصري ، انشأها حين غزا سورية بطريقه الى الاناضول ، ثم جدد بناءها الترك عندما جعلوا منها مقراً لاقسام اللواء .

تمر الايام هنا فلا تطبع بذاكرة عمر الا صورة كدراء ولا تحرك في نفسه الا اماني مقهورة . وماذا تريد من فتى في الثامنة عشرة من عمره ، ضيع المدرسة فلا امل له باللحاق بها ، وفاته الحقل فلا رجاء له بالفته ، فلا هو متعلم ولا هو فلاح ، ولو انه كان الاول لعاش على الامل وترك النفس تسرب في افاقها فتجد بعض العزاء ، ولو انه كان الثاني لقنع بالقدر ، ورضي من الحياة بافق صغير ، لا يتجاوز مدى

عينيه ، لا له وراء ولا له امام .

من يعلم ما يخبيء له القدر في طياته ؟ ما الانسان هذا الاله الصغير الذي سخر القوى الطبيعية لخدمته ، الا مخلوق صغير ، يدب في هذا الكون الى مستقر معلوم ، بقدرة الاله الجبار الاكبر ، وهو مسوق الى مايريد او الى ما لا يريد ، رضي ام ابى ، لنعترف بهذا فندرك تأثير الاقدار في توجيه دفة حياتنا .

كان عمر يسكن مع والده ، في محلة النهر قبالة الجامع من الشرق ، داراً يدخل اليها بدهليز قامت باعلاه شرفة ارتفع الى احد جوانبها عليتان ، وينتهي الدهليز الى حوض فسيح في وسطه بركة يتدفق اليها ماء « الحنابلة » بمزراب ، وتدور بها احواض البنفسج الساجي على اقدام الورد في ظلال التوت والخوخ والدراق والتين ، والى اليمين رواق لربط الخيل في الصيف ، والى اليسار بيتان علت ارضهما الجنينة ، تقدمهما افريز رصف بالبلاط الجردي الاحمر غير المهذب ، وفي غربيهما بيتان ينتهي احدهما الى الشارع ، ويتصل باحدى العليتين بواسطة سطح المطبخ والدهليز ، وكان عمر ينام في العلية الشرقية هو واخوه الجندي .

الانتظار

اخذت شمس نيسان الفتية، تبعث باشعتها اللامعة الفاترة الى نافذة الغرفة ، فتتكسر عليها ، ثم تدخل فترفع باصابعها الفضية غشاوة النوم عن العيون . نهض عمر من فراشه وتطلع الى اخيه ، فوجده في غفوة عن الحياة ، يحلم تحت دفق النور ، ليس توقظه جلبته ، وكانت الاشعة المترجرجة تزيح عن وجهه كآبة الحلم ، فتكشف عن محيا امتلأ شبابا وصباحة ، فاذا انحسرت رأيت كأن رؤى جميلة وقاتلة تتجمع في معاقد اهدابه فتهزها .

ترك عمر النور يندلق في الغرفة ببطء ونزل الى الحديقة ، فوجدها لا تزال مخضلة بانفاس الصباح ، وقدحشا الورد اكمامه من درر الطل الراعش وضحك من بلاهة الاغصان الباسقة الجافة ، واخذ البلبل بصوت خافت ، تكاد

تسمع لهاثه في الحانه ، ينثر اغانيه في جوانب الحديقة ، ينتقل من فنن الى فنن ، حتى اذا حط على الوردة الحمراء ، ارتفع صوته بالغناء ، يمازجه شجى تحس فيه كأن قلبه على لسانه ، وما زال صوت الصادح يرتفع حتى ملكت روعته جوانب الحديقة النائية ، ثم انقطع فجأة وسقط الطائر الصغير جثة هامدة الى الارض .

تقدم عمر منه واخذه في كفه يتفحصه بخوف رأى في جنبه المهيض جرحاً يدمى ، تجمع الاسى في عينيه دمعة هي كل ما يملك ، لكن هذه الدمعة الحارة الطافية لم تنطلق ، لان رصاصة انطلقت في الغرفة التي تركها منذ هنيهة ، ترافقها صرخة الم .

انتحرت ! لم يشأ الفتى ان يقول اكثر من هذا لوالديه واخوته الذين جاءوا يجثون حول فراشه صامتين احتراماً لالمه الذي يعانيه في صمت وهدوء رهيبين ، هو لم يرسل انة ولا زفرة ، لم يتضجر ولم يكتئب ، وهم تخشرج الروح في صدورهم ثم تندفع فتقف في اللهاة تتهافت غصصاً خانقة ، وتنفجر رؤوسهم بالحزن ، فيفيض الاسى على الوجوه ، ويغيض الدمع في العيون .

كان المسدس الجاني يشهد هذه الفاجعة بلا حراك على قيد ذراع من الشاب ، لم ترتسم على وجهه الاسود علائم الدهشة والخوف ، ولا هزته عاطفة الرحمة بالشباب الذي اردى ، كان حديداً بارداً ببرودة الموت ، الى ان وقع عليه نظر الجندي ، وغامت عين الفتى ثم لمعت لمعانا غريباً ، وارتسمت على وجهه بسمة حمراء ، فاذا الحديدة الميتة الباردة تدلف الى الذراع الممدودة حتى لتكاد تقبض عليها . لكن هذه الآلة الرهيبة تغيبت في جيب الوالد في مثل لمح البصر ، على حين طافت بوجه الفتى ابتسامة عليلة صفراء .

خرقت الرصاصة الامعاء الدقيقة في مواضع كثيرة ، وأتمر الاطباء مرة ومرة ومرة ، ثم عادوا ليعلنوا بخفوت ، عجز الطب وعجزهم عن تحدي رصاصة صغيرة اتخذت قرارتها الابدية تلك الاحشاء الطرية ، ولما اعلن الانسان ضعفه ، اتجهت القلوب والابصار الى السماء ، تنتظر الاعجوبة الشافية من الاله العظيم ، وفي اليوم الثالث ادركت المحتضر رحمة ربه فاختاره الى جواره .

انتحرت ! كلمة واحدة ترددها الشفتان ببرودة ، فاذا اخذت شكلها في الوجود ، صحبها انهدام حياة مليئة بالشباب

والامل ، وهكذا تحيا كلمة وتفنى حياة .

كان عمر ينبش عن اوراق اخيه ، حين عثر على ورقة صغيرة مطوية اصفر وجهها ، فتحها برغبة حادة ، فوجد مكتوباً فيها « عندما تملك العاطفة الجامحة العقل ، تبرق في العدم اسرة الحياة ، وتتراءى قبلات الاشباح اثمن ما على الارض » .

اترك لك يا قارئي العزيز ان تنبش عن سبب هذا الانتحار في تضاعيف هذه الكلمات الخالبة ، ثم اطلع على نفسك بالسبب الذي وجدت ، فاذا قنعت فقد يكون هو بعينه ، فالقناعة بالخطأ تجعله صوابا ولو الى امد معلوم .

ولكن ما هو الانتحار ، وهل يمكن ان نعالج فهمه من طريق المنطق ، فنكشف عن خطائه او صوابه .

لا ريب في انه ككل القضايا يحتمل الوجهين ، وانه من الصعب الغوص الى اعماق النفوس البشرية والاطلاع على الظروف والعلات التي تعمل على تكوين الانفعالات النفسية والجسدية ، وان الحكم الذي يصدر عن ذلك فيه كثير من الحدس .

ولكن مما لا ريب فيه ايضاً ، ان الانتحار يتطلب

شجاعة تسود كل العواطف الاخرى في المنتحر الذي تسمو العواطف فيه وتقسو وتشمخ الى ان تلتقي في قمة واحدة تنطح العدم فتنفجر فيه كالقنبلة وتتلاشى ، فالكبرياء هي التي تنتحر لا الوضاعة ، والشجاعة لا الجبن ، والعقل لا الجنون والشبع ايضاً لا الجوع . ان الوضاعة والجبن والجوع تدفع في غالب الاحيان الى السرقة ، الى الشحاذة الى النهب ، الى ارتكاب الجرائم لا الى الانتحار ، ربما قيل تواتر المصائب ، نعم ، اذا جاءت المصيبة دفعة واحدة . فاحدثت هزة عنيفة في النفس قتلتها في النادر واسقمتها في الغالب . اما المصائب تأتي الواحدة بعد الاخرى ، فلا تقبل التكاثف ، كل زفرة يصعدها المرء تذهب بواحدة منها ، فتوءثر ولكن ليس بالقدر الذي نتخيله ، لان النفس لا تأخذ منها اكثر مما تسع كالجسم لا يأخذ من الحرارة اكثر من قابليته ، ولو ان درجة الحرارة ارتفعت في النور او في الظل الى اربعين او زادت ، فهل ترتفع درجة الجسم الى هذا القدر ؟ فاذا كان الجواب سلباً قلنا كذلك اشتداد الحزن لا يقتل ، وقد لا يبعد هذا الترجيح بين حياة متعبة ، وموت مريح عن الاستشفاء الذي يختاره الطبيب لمريضه في شيء ، لكن اختيار المنتحر يختلف

عنه بان لا اختيار فيه .

لم ار والداً اجزع على ولد من ابي عمر حين وسدوا ابنه لحده ، اكب على الجدث الذي انتزع منه فلذة كبده ليحجبها الى الابد ، ولما سدت الصفائح مسارب عينيه الى آخر قطعة من الكفن ، تناهض معتمداً على ركبتيه فلم تتسق له النهضة ، طحنت المصيبة فوءاده وضلعته فنزل رأسه الى منكبيه ، عاد الى البيت يتوكأ على عصاه ، واخذت تمر به الايام فتهدمه في الصبح حين تقبل ، وتتعثر به في المساء حين تدبر ، حتى اذا تم لها شهور خمسة حملته الى عالم ولده المغمور بالاسرار .

عاد عمر من المقبرة ومعه رجلان يحملان النعش فارغاً وقد كان النعش قبل ساعة ، يحمل دنيا كاملة كانت موطن احلامه ومسرح آماله ، ومقر امانيه ، وهو الان الواح من الخشب شد بعضها الى بعضه بمسامير ، يبعث في اقسى القلوب رجفة الخوف . فما اضعف باطل الحياة واوهى غرورها ، وما اقوى الموت في تواضعه وافصحه في صمته .

ينتحر الاخ ويقضي الوالد جزعا عليه ، ويصبح عمر رخص الشباب ، والعيش يدافع المغامر ، اعزل السلاح

والقوي يأكل الضعيف ، قليل الزاد ، والحرب تركت البشر خمص البطون يتلقفون لقمتهم من فم الاسد ، اويلتقطونها من حمأة القذارة ، يصبح عمر رب عائلة من والدة واخوات ثلاث ، واخوة اربعة ، يكاد يحضنهم ذراع .

لست احب ان اتتبع حياة عمر في غمرة موحشة حزينة ، او ارسم جهاده الفقير في سبيل الرغيف ، يسد به رمق هذه الكتل الحية من لحم ودم ، لا تقوى على الجوع ، ولا تقوى على العمل ، ولا تقوى على الاصطبار ، ومهما يكن كفاح المرء في سبيل الحياة مجيداً ، ومهما يكن هذا الجهاد محترماً ، اذا قيست الحياة على الكفاح لا على الثمرة التي يوءتيها ، فان هنالك بعض الاسرار العادية التي لم تكن سراً لولا كتمانها ، لا نبيح لانفسنا ان ننبش عنها احتراماً لسرائرنا اللاصقة بحياتنا الشخصية لصوقاً شديداً وقد يكون من ثم سحر الحياة ان تكون دقائق هذه الحياة مطوية ومغمورة بالاسرار ، حتى لترتجف اصابع صاحبها عند تلمسها ، اذ يحس جرحا ينغر تحت كل انملة ، فما احراه ان يبتعد بنفسه عن النار التي احترق بها من قبل ، وما يزال يحمل منها في كل جارحة ميسما .

وعلى هذا فسنمر على دقائق حياة عمر ، دون ان نحمل القاريء سأم الوقوف عليها ، وقد يكون ممن لا يحبون مشاهد المآسي ، او ننبه فضوله اليها وقد تساوي اكثر من عناء الفضول فيسخر منها ويسيء الى صاحبها من حيث لا يريد .

ولست ادري ، اهي الكبرياء التي تمنعنا عن فتح هذا الصندوق المغلق ، والتفرج الى حطامه الذي يحمل منا الشيء الكثير ، ام حقارة هذه الحطامة التي نحاول نكرها بكل قوتنا فلا نقدر ، لانها عملت على تكويننا ، فهي في كل خلجة من خلجات نفوسنا ، ام قدسية هذا الحرم المفغوم بلهاث الاكبد ، المعمور بالباطل والغرور ، الموروثين من اقدم اجيال الحياة ؟ لست ادري .

يقظة القلب

يعمر البؤس قلب المرء باطيب المشاعر الانسانية فترى الى البائس يمتص بؤس الآخرين ويجبل به عواطفه ، فاذا طرقته أنة تصدع لها وتهافت،وهو يجعل منه وعاء يحب الجمال ويتشرب الوانه الكثيرة الفاتنة،لانه يجد فيه دواء لاحساسه المرمض ، وغذاء يبعث فيه قوة الحياة ، واذا رقت المشاعر وتفتحت للجمال غزاها الحب في مواكبه ، فيتفجر صخرها بالماء ، وينبت العشب اخضر في شعافه ، وتنطلق من اعماقها اغنية الحياة وتطوف على محياها ابتسامة الامل .

كان عمر في تلك الآونة شاباً يجري الدم حاراً في عروقه، فيحس بجماه تدب الى قلبه ورأسه .

عندما تأخذ الانفعالات النفسية صورها من الحياة تتجلى حركات وافعالا ، فالشاب في كل ما يعمل يصدر

تحت تأثير عواطفه واحساساته وتفاعل خوالجها . وليست حياته المادية باشكالها سوى صور عن نفسه او آلات ميكانيكية تديرها كيف تشاء ، هي حيوية النفس المتجسدة التي بلغت ذروتها من الكمال الخلقي .

وكان جو بعلبك التاريخي ، والمناظر الجميلة التي تحيط بها ، تساعد على زخرف الخيال ، فتبهت العين في زهو الليالي الزرقاء ، ويتلاشى القلب في كسل الايام الضاحية الهاجرة ، ويسبح الفكر في غمرة لا شعورية ، وتنقطع كل صلة له بالحياة ، فيصب الشاب قوته ، وحيويته ، وخياله ، في ذاتيته وتصبح هذه الذاتية رحى تدور عليها الحياة بعناصرها الجبارة ، فتنطحن فيها ، فاذا انتهت منها عادت الرحى تدور على بعضها ، فتأكل في ذاتها ذاتيتها ، ولا يلبث الشاب ان يرى هذه العواطف المتآكلة تعوي من الجوع ، وقد انخلعت من الايمان وهجرت التقوى ، وتبدت لها اشباح الحياة عارية ، ترقص بزيفان خالب فتنهد اليها بكليتها ، فيعيش في جو من الكفر المترجرج ، والحب الغامر ، والفسق الجارم في وقت واحد معاً .

هند

وكانت هند تسلخ الرابعة والثلاثين من عمرها ناضجة الجمال، والمرأة الحسناء في هذا العمر، تجتاز اخطر ادوار حياتها، فهي على القمة، تلقي بنظرها الى الماضي، فتود لو ترجعه اليها في قبضة يدها، وتتطلع الى المستقبل، فترى الى لجة الزمان تبتلع ايامها، وتبتلع معها شبابها وجمالها، فتقف مذعورة لا تريد ان تتقدم خطوة واحدة. ويجتمع حب الحياة الى خوف الفناء، فتدعو اليها كل حيويتها، فتتجلى رائعة من روائع الوجود، وتود لو يقف الوقت عن الحركة، وينعدم الزمان، وينفرج قلبها ليسع في منحنياته وشغافه، كل خلجات الحياة.

على ان عمر اخذ بجمال هند قبل ان يعمل فيه هذا التحليل النفسي، وقد رأى احلامه تجول على اهداب عينيها

ونعيمه يرفرف حول فمها ، ولم يكن هذا الميل ليتعدى حد الاعجاب بجمال لا تتمالك النفس الا ان تتأثر به تأثراً قد لا يبعد كثيراً عما يفعله في النفس برعم الورد المتفتق من قبلات النسيم ، او الحمامة البيضاء تدوس بقدميها رأس العشب الاخضر ، وتمرغ وجهها ببليله الندي ، فالجمال يعمل عمله السحري في النفوس الحساسة اينما كان وحيثما وجد ، ومهما يكن تأثر النفس بالجمال المطلق قويا ، فان تأثرها بالجمال الجنسي اشد واقوى ، ويكون هذا التأثر سبيلا الى الحب ، يقصر او يطول بحسب شدته ، وقد يكون بذرة الحب الاولى .

والعاطفة اذا بقيت في عالمها محصورة ، تتلاشى وتفنى ، ولذلك نرانا مجبورين ان ننادي حيوانيتنا لنخرجها الى عالم الحياة حركة وفعلا ، بقبلة تلتصق فيها الشفتان ، او ضمة يترفق بها الساعد ، فان اقتراب الجسمين وتلامسهما مهما كان بريئا ، يمكن جذور الحب في قرارة القلوب ، ويدفعه الى النمو في اعماقها ، ولهذا نستطيع القول ان حيوانية المرء النائمة ، هي التي تعمل على تكوين الحب عندما تتنبه ، وهي ايضا غاية الحب التي يموت عليها .

ولست اريد ان اقول ، ان العاطفة الحيوانية وحدها ، تكون وتعمل فانزل بالانسان الى درك البهيمية المحض ، ولكني اقصد الى انها السبيل الوحيد لاعطاء التأثيرات النفسانية شكلا حياً ، ولا ريب في ان هاتين العاطفتين متلازمتان تلازما شديداً في هذا الانسان المركب .

نمو الحب

ولقد اراد عمر لحبه ان يعيش ، او ارادهذا الحب لنفسه ان يحيا — اذ ان بعض الارادات الخامدة فينا تتنبه بمجرد وقوعها تحت تأثير خارجي عنا ، كما ينبه التيار الكهربائي العصب الميت في المريض فيعود الى وظيفته — متأثراً بعمل الجمال الدائم والحياة من مقتضاها النمو والامتداد والتسلط فتظهر هذه العناصر في النبات بشكل معلوم ، وتأخذ في الحيوان شكلا يختلف عنه ، وتطلع على الانسان في حبه بشكل يمازج بين روحانية الحب وحيوانية الانسان .

ولنترك لعمر ان يخط لنا الطريق التي مشى به حبه فيها ، ولنجعل من انفسنا عليه مراقبين لا متفرجين ، فندرك الى اي مدى يبلغ تأثير هذه الرواية الازلية في الحياة الانسانية .

كنا رسمنا خطوطاً لهند لا تفي بالصورة التي يجب ان يعرفها القاريء عنها ، فنعود الان لنضع على تلك الخطوط بعض الالوان التي تلزمها علنا نوفق الى ابراز صورة عن هند تقرب كثيراً من حقيقتها . لانا نريد ان نريها للقاريء كما هي لا بالصورة التي قامت في نفس عمر منها وقتئذ ، ولا التي تقوم منها اليوم ، نريد صورة خالية الى حد من تمويه الفن وزخرف الخيال .

فقدت هند زوجها ، قبل ثماني سنوات تمر على هذه الحوادث ، اذ كان في اوج شبابه واذ كانت في روعة صباها سافر الى اميركا في طلاب تراث سقط اليه من وفاة قريب له ، فعاجلته المنون قبل ان يدركه ، وجاء الخطب عظيما عليها ، فعزمت على ان لا تفكر في زواج بعده ، وقد يكون السبب في ذلك انها فقدته حينما اخذت تحبه ، فانها تزوجت منه مرغمة ، حينما لم يرد لها اهلها ان تقترن بالشاب الذي تميل اليه ، ولم يكن في ذاك الوقت لاختيار البنت شأن كبير ، بل كانوا يعدونه اذا ما وقع عيباً تعاقب عليه بالحرمان ، و كثيراً ما كانوا يسمون هذه الطفلة عروساً لهذا الطفل عندما تبصر عيناهما النور . والمهم ان نعرف ان هنداً

كانت تميل الى الزواج من شاب غير الذي زوجوها منه ، وان هذا الميل ينم شيئاً من الحرية كائنا في نفس الفتاة ، وان هذا الشيء الصغير من الحرية نما واتسع مع الوقت ، كما تنمو جميع العناصر الحيوية .

على ان هذا الميل القديم ، لا يمنع ان تكون هند احبت زوجها ، ذلك لانه بقي عاطفة محصورة لم يتح لها ان تخرج الى عالم الحياة ، فتلاشت في نفسها ، ولان هذه العاطفة كانت في قلب فج محمول على غرور الفتوة ، ليس عنده قابلية الاستساغة ، فلم تكن اكثر من نسمة من نسمات ذاك الغرور ، وفوق هذا فان المرأة تحب اول فارس يطلع عليها فاتحاً ، فتحفظ من رجولته الشرسة ، اعذب اللذاذات الدامية .

تتناقل العامة مثلا ربما كان آتياً من اقدم الاجيال ، هو : «عزباء الدهر ولا ارملة شهر» . هذا المثل يحمل معنى عميقاً يتناسب مع عتقه ، يكشف لنا عن نفسية الارملة بالنسبة الى الحب والى عمل الحب ، ومما لا ريب فيه ان السبيل اليها اهون منه الى البنت البكر التي لم تتفتح خلاياها على اللذة ، ولم تند جوانحها على الحب ، فلاذت في عصمة من جلال الطهر ترتجف ابلغ الايدي في الاثم عند اغتصابه .

رسالة الربيع

عندما يطلع الربيع في كل عام ، يحمل معه رسالة الحياة ، فيبعثها في الكون نوراً وزهراً ونسما ، وفي يوم ربيع ضاحك ، وقفت هند الى المرآة ، وكانت نافذة غرفتها ترمي الى حديقة خلع الربيع عليها اجمل ابراده ، وكانت الصبا تحمل اعراف الورد مع نسماتها ، فتدفع بها من الشباك ، لتداعب شعرها الكستنائي الذي كانت تجمعه عن كتفيها لتضفره جديلتين ترسلهما الى منازل الردفين ، وكان عصفوران يقعان على حديد النافذة ، واحد زائف ينشر جناحيه ويقبضهما ، وآخر مطمئن ، ثم لا يلبثان ان يطيرا الى الغصن فيضمان منقاريهما في مثل الزق ، ثم يعودان الى الكر والفر .

حدقت هند بالعصفورين طويلا ، وقد ذهلت عن نفسها ، وعن المرآة ، وراحت تسرح في الحديقة ، بين

مضاجع الورد ، وملاعب الطير ، وتمثلت لها دنيا الشباب بما فيها من مرح وزهو وحب . فغرقت في سبح من اللذة الحالمة ، وما كادت تهز رأسها قليلا ، حتى وقع نظرها في المرآة ، فانتبهت للحقيقة ، وتطلعت الى وجهها فاذا هو في غلالة من شحوب زادت في فتونه ، ولذ لها في هذه اللحظة ان تقف الى المرآة وان تطيل النظر الى محاسنها ، فرأت وجهها يفيض بالجمال ، واحست وجودها يموج بالحياة ، واخذ صدرها يرتفع ويهبط ، فذعرت له ، وشعرت لاول مرة بكآبة الوحدة فدعت اليها الخادمة .

وهكذا كانت هند مغرمة عندما تعرف اليها عمر ، ووضع قلبه بين يديها ، وليس يهمنا ان نعرف شيئاً عن هذا الحب او ان نتحدث عنه ، بل سنترك لعمر ان يحدثنا عن غزوته هذا القلب الحصين وعن فتوحه فيه .

*

الى هند

بيني وبين اليقين ستار رقيق ، قصرت يدي عن خرق حرمته ، فازيحيه بيمينك القادرة ، والفظي كلمتك الاولى والاخيرة ، شقاء تحمل ام سعادة . قرأت لك رسالة الاعتراف

التي كتبت لاجلك وقلت لك « انظري الى تخيلات الشباب الجميلة والى كيف انا نعيش بالخيال » ولكن الحقيقة كانت انني اعترفت ، وظننت انني القيت عن نفسي عبئاً ثقيلا ، فاذا انا اطلب محالا .

ولم اجسر على النظر الى وجهك ، الا بعد ان انتهيت مع الرسالة ، وتطلعت فرأيت في عينيك ذبولا وانكساراً فانصرفت .

بما في من شباب وايمان وشعور وحياة احببتك .

واحبك ما بقى لي الشباب والايمان والشعور والحياة .

انما اذكري ان الزهرة الضاحكة لطل الصباح ، المستحمة بنور الشمس ، الراعشة تحت انفاس النسيم ، تدوسها الاقدام يوما ، وتصبح ترابا للنعال .

واذا كانت كلمتك الاولى شقاء .

ارجو ان تحرقي هذه الرسالة وان تضعيها في صحن السيجارة الذي تقدمينه لي ، لارى عواطفي المشتعلة رماداً ، تذريها للهواء يد المرأه الناعمة .

هند !

لجأت اليك من بؤسي ومن شقائي ، وهربت اليك من

آلامي فهربت مني — وكنت اقسى عاطفة من الجماد — مخافة ان ينتقل اليك الالم بالعدوى ، او يدنو منك البؤس كلما دنا منك خيالي ، ففي سبيل الله يا هند ما الاقي وما لاقيت .

حلمت بالسعادة وبنيت من احلامي هيكلا ذهبياً ، ونمت وقد اعياني التعب ، فلما استيقظت وجدت هيكلي الجميل ، وجدت امالي العذبة ، محطمة على عتبة الغد ، نوحي ايتها الحمامة ولتصمت العصافير المغردة ، ولتسكت اجراس العيد ، فانات الحزن تملاء الفضاء .

كم كان يصبيني منظر البدر المؤتلق ، يتهادى في القبة الزرقاء ، تهادي الحسناء في ثوبها الازرق يرسل من شعاعه اسهاماً على صفحة الماء الجاري فتذوب في صفائه وسلاسته ، وتلبسه من اللجين ثوبا براقا ويحسده عليه الصفصاف فيلقي بنفسه الى الماء ، فيغتسل ويخرج الى الضفة تاركا اثوابه المبللة .

اما الان ، فان هذا المنظر يبعث في نفسي حزنا والما شديدين ، كما يبعث العيد وطبوله ، وجديد الاغنياء وطنطنتهم في نفس الفقير المدقع الحزن الراقد والالم

الدفين .

دعي نسيم الصبح ينسل من ثوبك حتى يبلغ الصدرا
ويلثم النهدين والفجو انه رسول يحفظ السرا
لعلها تمسنا نسمة تبرد منها كبدي الحرى
يا هند يا هند ارحمي بائساً ينظم في نعائك الشعرا

«عمر»

*

الى هند !

وكنت كالطير عيشاً يهيم فوق الغصون
ويهبط الروض حيناً وينجلي بعد حين
من الخزامى الى زهرة النقا فالياسمين
حتى بليت بسجن من الغرام مهين
وصيروك عليه رقيبة تجرسيني
ما كنت احسب اني اعيش رهن السجون

*

صداح غن الاماني ورد باللحن امسى
وقل لهند بلطف الا افتحي باب حبسي
وأطرديني بعنف فقد طربت لرمسي

ومن اجمل ما خلق الله هند ، وهل الجمال سوى روح الهية ، ترفرف القلوب الشاعرة حول شعلتها النيرة .

وفي عيني هند سحر عجيب . فتارة فيهما شيطان يتكلم واخرى ملاك صامت .

وفي فمها الكوثر . وبين شفتيها النار والجنة . وشعرها حبائل ومكايد . وهند من اجمل ما خلق الله .

هند !

بسماتك ما خلقت الا للبؤساء فامنعيها عن بقية الناس .

البؤساء ، اولئك الذين منعتهم الحياة من طيبها ،

ورماهم الدهر بسهمه فاصمى ،

وقطب وجه الهناء لهم ،

ولوت عنهم السعادة بعنقها ،

فهم يعيشون في ظلمة العزلة ، وعلى نور الالم يحيون .

بسماتك تلك : يحوكون منها اردیتهم ، ويتغذون منها بالرحمة .

يتفيأون ظلها في القيظ ، ويستدفئون بنورها في البرد .

يسقون منها امالهم الجافة ، ويروون قلوبهم الذابلة .

فصوني ابتساماتك عن الناس . وامنحيها للبوساء صدقة

وزكاة .

هند !

ها ان الشمس تغرب عن مرجة راس العين الزمردية . وانا ارقبها عند نبعها الصافي . وحولي سكون يقطعه خرخرة الماء وزقزقة العصافير ، في هذه البرهة قدرت ان اخلو لنفسي واتحدث لقلبي . لقد هربت من المدينة غير آسف على ما فيها الى هذا السكون الخالب ، واخذت مقعدي عند جذع الصفصافة الكبيرة ، وخلعت عن نفسي رداء الظاهر المستعار لاراها كما هي ، واطلقت قلبي من جنبي ليتمتع قليلا بنعمة الحرية . فكنت وكان كل شيء حولي طبيعياً وخالصاً للطبيعة .

وحبست ذكرياتي ، واردت ان انسلخ عن الزمان وهممت ان احيا ساعة بذاتي كتلك العشبة النابتة على الصخر ، فاذا خيالك يطالعني في الماء ، في العشب ، في الشجر ، في الارض ، في السماء ، وفي كل شيء . فالى اين تلحقين بي لتفسدي علي هنيئة افديها بالكثير مما املك ، بل لماذا احملك معي الى هذه المنازل النائية ، فتثيرين في العاصفة حين اطلب الدعة والطمأنينة .

« عمر »

يوم وليل

الى هند !

انت تنامين ملء عينيك وفي حجرة في هذا البلد عينان ارقتان ترقبان القمر الطائف بلا لائه على القبة الزرقاء ، عشرون دقيقة بعد وتقع الساعة الثالثة في لجة الماضي ، فيهتز لانقطاعها قلب الليل ، قل زيت السراج فتضاءلت شعلته وعادت صفراء عليلة ، تقاسي نزع المحتضر ، فرفقت بها وطفيتها ، فاحتوت الغرفة ظلمة غبشاء ، لكن البدر يندفع بفضوله حتى ليخيل الي انه يوجه بانظاره الحادة الى حيث ماتت الشعلة ، يستكشف اثارها ويكشف عن اسرارها ، وها هي طوالع انواره تدخل من النافذة بلباقة الجاسوس وحذره . انتشر ايها النور وتألق وأنر سبيل القلم ليضع على وجه القرطاس نفثته .

هل كانت دعوة الى عرس فتزينت ، فكنت فتنة تتحرك ، وتطلعت اليك فهاجت النظرة لاعج القلب فثارت كوامنه ، وماذا تريدين ان يكون غير ما كان وانت جميلة وانا شاعر . وتركت الغرفة كما دخلت اليها ، كأنك في غفوة عن جمالك ، وعما يتركه في القلوب من تأثير .

لك الله ايتها الغافلة ! هل علمت اني حملت منك حمى تهافتت قواي تحت رسيسها حتى احسست بالوهن يدب الي من كل صوب ، فهربت الى الهواء الطلق ، اغرف منه بشدقي ما اقدر ، وما كان الهواء ليزيل حمى الاكبد .

وعدت اليك في المساء اندفع مرغماً ، وقد عاهدت النفس ان لا اعود ، وما ادري ماعراني ، رعشة القلق ام هي الحمى عاودت ، خفق قلبي ، واشتدت ضرباته حتى خشيت ان يغشى علي ، قلت لك بابهام فيه شيء كثير من السذاجة ، ضعي يدك على قلبي تري ما به ، فوضعتها برفق (شكراً لك) ولم يكن ليخطر ببالك انني طلبت بها الدواء . تقضت السهرة والحمى لم تهمد ، والقلب لم يهدأ وعبثاً ربطت عليه باليمنى ، ولولا انه رهين هذا القفص العظمي لطار . وكنت اجيل النظر في الحضور وفيهم اصحاب لي واتراب ، فلم ار

في عيونهم دهشة ولم المح على وجوههم قلقا ، فادركت انى كنت وحدي احس بك واشعر ، فطالعتني من اعماق نفسي كبرياء مقهورة ذليلة ، طالما راودتني في مثل هذه السانحات حين يلذ لي ان لا اشبه الناس في شيء ، وان اشذ عنهم في كل شيء .

ما عدت اطيق العيش في عالم ادور فيه على نفسي فلا اخرج منها ، وصرت ارى الصمت سخفاً اذا طال امده انقلب الى الم ساخر لا اقوى على عبئه ، فاليك نفثة ، من ذوب الفؤاد ، واحمل يا ليل عني .

« عمر »

الى هند !

تراكمت عندي هذه الرسائل ، فلا انا اجسر على اعطائك اياها ، مخافة ان ترديها بهون وفيها شيء كثير مني ، ولست اطيق الاهانة حتى من احب الناس الي ، واحاذر ان ينقلب حبي الى بغض ناقم واكره العيش في البغض يتأكل القلب ، ويلوي بالعقل . ولا انا اقوى على الاحتفاظ بها ، واحسها افاعي يملأ فحيحها دنياي في النهار ، حتى اذا اتى الليل دبت الى مضجعي من كل زاوية . فيملكني ارق

خائف مضطرب . فاترك الفراش مذعوراً وابدأ بذرع الحجرة من اقصى الغرب الى اقصى الشرق مراراً ومراراً حتى يعلن الديك قدوم الفجر ، فآنس الى هذا الصائح الاخرس ، وعندما تأخذ الحياة تدب الى الاشياء ، يأخذ النعاس بالانسلال الى جفني ، فاغفوا اغفاءة الذئب .

احمل اليك في هذه الوريقات كبرياء محطمة ، هي كل ما املك واثمن ما املك ، فخذيها يا سيدتي ، فهي سلاح الجندي الباسل سقط في المعركة دامي الصدر ، وليهنك النصر .

« عمر »

عمر وهند

هذا كتاب لك !

من اين وممن ؟

فيه اشياء قد يلذ لك قراءتها يا هند !

قلت لك ممن ؟

اقرأيها ثم رديها الي اذا ...

ترك عمر اشياءه في يد هند وقفل راجعاً من حيث اتى قبل ان تخرج من ترددها ، ودون ان يجسر على الالتفات الى الوراء ، واغلق خلفه باب الدار بشدة كأنه يوصده عليها ، مخافة ان تلحق به فترمي بوجهه هذه الاشياء التي يحبها ويخافها في وقت واحد ، ولما صار الى الشارع انطلق يعدو وقلبه يعدو فيه حتى بلغ الى حجرته . اخذت تطوف برأسه الاخيلة وتغزوه الاوهام ، فاذا سمع وقع اقدام ظن كتبه

راجعة اليه بخطوات جبارة ، فلا يملك نفسه عن التطلع الى باب الغرفة ثم الى ابعد من ذلك حتى يطل على الزقاق ويرمي بعينيه الى اقصاه ، فاذا وجد كل شيء مكانه ، ورأى الناس يروحون ويأتون كعادتهم ، اطمأن الى ان الكون لم ينقلب ، وان الثورة ما زالت في نفسه لم تتعد حدود جلده ، فعاد يعرض نفسه على التجارب ، ويقاضيها حسابا اشد من حساب ملائكة العذاب .

فما الذي صنعت هند باشيائه يا ترى ؟ هل قرأت هذه الرسائل العزيزة الممقوتة ، ام مزقتها بدون ان تفعل ورمت بها الى النار ، وكم هي حانقة الان ، ولماذا ارتكب هذا الجنون باعطائها اشياء تخصه وحده ؟ ولكن ! الا يمكن ان تكون راضية ، ألا تحس بين تلك السطور قلبه الخافق وتشعر بالمه القاتل ، فترثي له وتعطف عليه ؟ ولكنه لا يريد رحمة ولا يطلب شفقة ، بل يرفضهما . انه يريد حباً والحب وان كان فيه بلسم الرحمة فليس فيه كبرياؤها ووضاعتها لذلك هو اسمى منها .

وجاء الليل ، فانقذه النعاس من جحيمه ، وفضل النوم انه يقطع الصلة بين حاضرنا والماضي برهة من الوقت تستريح

فيها اعصابنا المتعبة ، لتسترد نشاطها وتستعد للكفاح مرة جديدة ، فينقلب منطق الاشياء حسب القوة التي تخالج انفسنا . فاذا كان عمر في غده لم ينصرف الى التفكير بهند كما فعل بامسه ، ذلك لا لانه نسي المشهد الذي قام في نفسه ، بل لان الليل مر بيده الجبارة على اعصابه فهدأها ووطنها لاستقبال الخطب الذي سيطالعه مهما يكن قويا .

وما كاد يتقضى النهار حتى اقبلت خادمة هند وهي امرأة نصف ، سمراء اللون ، على وجهها ملامح من جمال متعوب ، عقدت على جبينها شملة سوداء مخرجة الاطراف بلوءلوء صغير كاذب ولفت رأسها بغطاء اسود من (اليشمة) تدلى طرفه الواحد على ظهرها ، واما طرفه الاخر فعطفته على عنقها ثم ردته الى الرأس ورفعته من تحت ذقنها الى ارنبة الانف ، فغطى وجهها ما عدا العينين . ومدت يدها الى عبها وأخرجت من طي ثوبها الرمادي المختم بالازرق ، غلافاً مغلقاً دفعته الى عمر وانصرفت .

هل هي اشياء عمر ترجعها هند اليه بعد غيبة ساعات معدودة تكاد تساوي اشهراً ؟ وماذا لقيت عندها من الترحيب والمقت والسخر يا ترى ؟ ام هي رسالة تحمل في اثناء سطورها

غضب الدنيا الى جانب اشلاء اشيائه ؟

مرت هذه التظنيات جميعها برأس عمر وهو يفض الغلاف . فاذا رد من هند ورد مختصر جاف :

« انها لم تفكر بالزواج بعد فقدها زوجا كانت تعبده ولا بالحب ايضاً . فقد خنقت عاطفتها وجاوزت الشباب الى سن العقل ، وانها تغفر له هذه الدعابة الجريئة ، على ان لا يكتب اليها بعد الان ، لانها تريد ان تعنى بنفسها وصحتها وراحتها اكثر من كل شيء آخر . »

طيب ، طيب ، ولكن اين الرسائل ، ولماذا احتفظت بها ؟

سؤال ردده عمر كثيراً فاختلفت الاجوبة عليه في نفسه ، ثم رحلت جميعاً تاركة اثاراً ضئيلة متحيرة ، والذي لا ريب فيه ، ان اشياءه ، تلك الاشياء التي كان يحسها افاعي تنهش فيه فنزعها عنه ، هي عند هند ، وقد تكون هند رمت بها تحت وسادتها او تركتها في وصيد القلب منها او دحستها في طي فراش ، فهي انى كانت عندما تشعر بالدفء تزحف اليها من كل جانب ، وتنفث سمها في كل ناحية من جسدها الخادر فيستيقظ ، ويضطرب تحت فحيحها وتحت

مخارز انيابها . ان ابليس سيخرج من جلد الحية ليروض هذه النفس الجامحة باساليبه المغرية ، بل ان شيطان هند نفسها — اوليس لكل منا شيطان من نفسه — سيطالعها بدنيا مليئة بالحب ، موارة بالامل ، فتصغي الى وسوسته الناعمة ، وتزف الى نداء اللذات .

انت يارسائلي العزيزة! طلائع غزوتي الميمونة فلتبارك ساحرة عبقر ، حتى ينهار هذا المعقل بين يديك السوداوين!

تمضي الايام وعمر يتهرب من رؤية هند ، ويتجنب الانفراد اليها ، يخاف عبثها وسخرها ، ويحاذر وخزها وتأنيبها ، فاذا شاءت الصدفة ان يلتقيها بين اترابها واخدانه في مأزق لا مفر منه ، ارسل اليها نظراً سارقاً ، فاذا رآها غافلة عنه ، اخذ يرسل النكتة في رفاقه فينفجرون بالضحك الابله ، فاذا تنبهت اليه اتقى نظرتها بنكتة ماجنة ، فترتفع الصدور على موجتها وتهبط ، وتشترك بها هند ويشترك عمر وكأن غمامة الافق المتلبدة اخذت تنجلي .

الوردة الحمراء

يهوى عمر الورد الاحمر ، هوى يأخذ بلبه ، هوى تملك ونهم ، لا هوى شيوع وتعبد ، فلا يكاد البرعم يشق ثغره حتى تمتد اليه يده بالقطع والى اي مصير ؟ لا ليكون زينة للمنضدة او هدية لحبيب ، بل ليذبل في عروة سترته بعد ان يرسل عبيره هباء في الهواء وفي اشعة الشمس . وترى هند الوردة على صدره فيروعها ذبولها المنكسر فينسلها من العروة برفق ، ويأخذ ينتزع اوراقها واحدة واثنتين ، ويقذف بها عيني هند وفمها وعنقها .

تلك هي نهاية الورد ، لم يبق في يدي شيء منها ، لا عبير ، ولا ورق ، فهل تحسبين انكن اقوى على الخلود من الوردة المنكودة الحمراء . ويروح عمر يردد في سره ، لم الوردة الحمراء وحدها ؟ ألأنها مثل الدم والخمر ؟

ترى لو بقيت الزهرة في كمامتها تختنق بانفاسها او لو تفتحت فوق غصنها ، تلوحها شمس النهار ويخضلها سحر الليل ، الى ان تتلاشى في وحدة كئيبة ، هل كانت تنعم بحياة لا سآمة فيها ولا اغراء ؟

سلوا الزهرة الحمراء تجبكم : ان الميتة على الصدر والفم لمن اروع مآسي الحياة واجملها .

البنفسجة الوفية

في المناطق الجبلية يبكر الورد بالعودة ، فترى اصابع الشتاء ممتدة الى قلب الخريف وتحس برجفة الاصباح تحت غلائل الصقيع البيضاء يخلفها الليل وراءه ، فاذا طلعت الشمس باشعتها توهجت هذه الغلالات بالمعان ، ثم انفرط حبابها المنتظم وراح يتبخر .

وصار عمر يتثاقل بالنهوض من فراشه ، ويتأخر عن زيارة الحديقة بعد ان لملم الورد منها آخر اردیته المبعثرة ، وهجرتها العصافير المغردة: رحيل في كل زاوية تدب الى القلب منه خلجة اسف عميق . فكأنما هذا الفراغ الذي يتركه في الحديقة ، يترك مثله في نفسٍ عايشت ازهارها وبلابلها زمناً ، فاترعتها بنضرها والوانها وعبيرها والحانها . فأي رابطة بين هذه الأشياء الفانية وبين النفوس ، غير حب

الجمال يا ترى ؟

لم يبق الا البنفسج وفياً لارضه وسيبقى وفياً رازحاً في مملكته رغم انف الثلج والليل والعواصف ، والالماء المتدفق في الحوض تمر به الحدثان وتنقضي ، وهو في اغنيته الخالدة ، يفيض على الطبيعة بالحياة ، ويفنى في جوانحها ، لينبت فاكهة وظلا .

فيا زهرة البنفسج ، رمز الحب العميق الاخرس ، قد ضربت مثلا للزهر ، ان الايمان بالحياة ، والثبات على الوفاء والامانة بالحب ، توجت رأسك بالاخضر الى الابد . فانت برغم تواضعك مليكة الزهور .

وانحنى عمر على البنفسج يداعب اوراقه ، ويقطف برفق كل زهرة تتكشف له حتى تجمع له منه ما يريد ، وانتزع ورقة خضراء حضن اليها الزهرات وجعل منها طاقة جميلة ، وكأنه شعر بانتهاء عمله فصعد الى حجرته . لم يجن هذا البنفسج لنفسه ، ولا ليتركه يذوي في الغرفة بين جدران اربعة كدرة ، واذن فان هنالك رسالة لم تتم بعد ، فما هي تلك الرسالة الحيرى ؟ شرع يدخل قدميه في جواربه بتردد ، ولبس قميصه الحريرية بفتور ، وعقد ياقته بحكم

الاعتياد ، ولما نزل في بنطلونه وانتعل حذاءه ادرك انه مهيأ للخروج من حجرته الضيقة ، فتقدم من المرآة والقى نظرة عجلى على نفسه ، فرأى وجهه يطفح بالرضا تحت طربوشه الخمري المائل الى اليمين ، ورأى السبحة تداعب اصابعه اليمنى حباتها الصفراء ، فيرتقص خيالها كلما قرعت الحبة الحبة .

الورقة الساقطة

اخذ عمر سمته في الطريق المؤدي الى اقصى المدينة ماراً بدار هند ، وألم بطرف الحديقة يريد ان يرى ولا يُرى ، وبنفسه ان يكمل رحلته القصيرة ، فطرق اذنه صوت يدعوه للدخول ، فالتفت مذعوراً خجلا ، فاذا المرأة التي يحب ، وقد جلست الى ظل شجرة توت ، على كرسي من الخيزران الاصفر ، وفي يديها صنارتان خمريتان تعقد بهما خيوطاً كدرة الزرقة ، وقد ذهلت عن عميتة الصوف فانطرحت بعيداً عنها على الارض تتحرك وتقترب منها عند كل عقدة جديدة .

واعتمت بقطعة من الكريب الاسود ، عصبت طرف اذنها اليسرى وحاذت رأس الحاجب وارتفعت الى منتصف الجبين فزوته ودارت الى قمة الرأس ثم عادت فعكفت

مستديرة السير على النقطة التي بدأت بها ، فحجبت قبة ميلاء ، وتركت الشعر يداعب صدغها الايمن ، واذنها ونحرها، والتفت بمعطف من الجوخ الاسود، بقبة من الفرو الاسود ذي ملحة متحيرة .

قال عمر وقد اسند كتفه الى جذع الشجرة ولم يشأ ان يجلس ، ارى غزلك يفنى بسرعة بينما هذا الثوب الذي تحوكين يعمر !

قالت وهل يمكن ان لا يفنى الغزل ؟ وتبسمت واحسب ان شتاء هذا العام سيكون قارسا ، فانا اعد العدة له من الان ، ألا تشعر ان حرارة الشمس ضعيفة ، هي اضعف من ان تطرد مني قشعريرة البرد ، فكيف بي في الشتاء ؟

قال لها ان الشمس لا تدفيء القلوب الباردة .

قالت :ان كلامك يخيفني فاسكت .

سقطت في هذه الاثناء ورقة توت صفراء في حضن هند ، فاخذتها في يدها وتأملت فيها . ثم رفعت نظرها الى الغصن الذي يعلوها ، وحاولت عبثاً ان تتبين موقعها ، ولما ردت بصرها اليها قذفت بها الى الارض ، فقال عمر : ان

هذه الورقة العليلة الصفراء ، توحي الي اشياء ، فقداحسست لوقعها على الارض صدى حزيناً في نفسي كانهدام الحيـاة ، ما الفرق بيننا وبين الاوراق ؟ تلك تبعثرها الريح ونحن تبعثرنا المنايا ، غير انها تعود في الربيع القادم فيحلةمن الشباب الرائق ، اما نحن ..

اصمت ، اسكت ! لا اريد ان اسمع شيئاً عن الربيع والموت ، عن الماضي والمستقبل ، بل حدثني عن الحاضر ، كل ما املك من ثروة ومجد وحياة هنا ، وفي هذه الدائرة الضيقة وحدها .

وعاد اليها هدوءها بعد هذه الثورة الصغـيرة فهمت بالانصراف قائلة : هل لك ان تعيرني كتاباللمطالعة والتسلية؟ فابعث به الي ، وافترقا . دخلت هي الى البيت وعاد هو الى الشارع ، لا يدري الى اين يذهب .

الكتاب

تلبك الامر على عمر وضجت الحيرة في نفسه فاي كتاب ينتقي للمرأة؟ وراح يستعرض كتبه القليلة المهملة في طاق حجرة نومه ، يمسح عن هذا غبرته ، ويلقي عليه نظراً سريعاً ثم يرمي به جانباً ، ويترك ذاك مسفع الوجه ، ثم يعود اليه فينفضه ، لم يستقر رأيه على واحد . عجباً أليس في هذه الكتب جميعها كتاب واحد يصلح للمطالعة، فلم يقتنيها اذن ؟ قامت في نفسه ثورة فهم بتمزيقها جميعاً وطرحها طعاماً للنار ، يا ضيعة الدراهم التي انفقها على شرائها ، وضيعة الوقت الذي افناه ، واقفاً بباب حانوت الكتبي يسائل عنها كمن يسائل عن حبيب تائه، هذه الكتب التي شاركته في عمره تأكل من نهاره ومن ليله ، هذه الكتب التي طالما عانقته الى الصباح غافية على صدره وقد سقطت من يد شلها النعاس ، ألا تقدر على تفريج

كربه الساعة ؟ وراح عمر يردد بصوت عال كالذاهل : نعم ، نعم ، هذه كتبي عرفتها جيداً ، ولكني لا اريدها الان لي بل لهند ، ومن الصعب ان يسلي الكتاب امرأة ، ثم اطمأن على قهقهة خبيثة وسري عنه كأنما اهتدى الى ضالته .

الشمس تدلف الى الغروب ، وذرى الشرقي تسطع تحت اشعتها فتزداد احمراراً وماء البركة يتماوج تحت انفاس النسيم يداعب اغصان الصفصاف المتكيء على جوانبها ، وشجرات الحور القائمة في البستان الذي يصاقب المرجة تعارض الافق الغربي ، تطغى كلما اشتد الظلام ، فاذا لملمت الشمس آخر خيط من النور ، اخذت حمرة الشرقي تتكدر ، واخذ الظل يغطي بمعطفه سفوح الغربي فيمحو الوانها ، ثم يزحف فوق الجبل ، فيسلب الشفق رداءه المقرمز ، ويسود الاشياء وتتلع الاعناق حتى لكأن السماء تقترب منها فتذر على رؤوس الحور والصفصاف نجومها ، فاذا سقط منها في الماء انجم من خلال الاوراق والاغصان ، رجفت من الذعر ام رقصت من الفرح وما تزال كذلك حتى يطلع الصباح .

وفي هذه اللحظة كان يغمر عمر شعور غريب وهو منبسط النفس الى هذه المناظر الخالبة ، وعلى شفتيه آخر مافي

الكأس من خمرة .

لمَ لا يكون هو ؟ الحكيم الذي غلغل في سر الحياة وعاد وفي يده كوب من خمر والى جانبه حبيب . عاد الى الوجود رجلا من لحم ودم يرى وجنة حبيبه الصفراء ، فيميل عليه بالخمرة حتى تشعشع وتنضر ، ثم يعطف عليه ، غنني! فلا اريد ان اسمع في الوجود الاك ، وارى الاك ، وهذا الزق والغصن والقفر ، تعال ننهب اللذات ، قبل ان يطوف علينا الساقي الازلي بكاسه المريرة ، فاذا صرنا الى بطن الارض ، فلن نعود من رحلتنا ابداً . نعم لمَ لا يكون الخيام؟

*

خذي يا هند ! هذا عمر الخيام ، شاعر فهم الحياة منذ تسعماية سنة ، باحسن مما نفهمها اليوم ، وهذه كتب اخرى ، ولكني على مثل اليقين ، من ان الشاعر سيكون ادناها منك ، واحبها اليك ، دس عمر نصحه من غير حذر ومشى .

ترى هل للكتب على القارىء هذا التأثير الذي نتخيله اذا كان لها من تأثير على الاطلاق ؟ وهب ان لها ذلك ، وليست هند طرية الذاكرة فتنطبع عليها الافكار بسهولة ،

ولا هي طفلة العقل ، فتتشرب المباديء التي تراد لها من غير شدة . وفي كل حال ، ان لم يكن للكتب تأثير عامل ، فان لها على الاقل تأثيراً موقظاً ، فاذا صادف الكلام منا موضع حس ضربه فتنبه ، وتفتحت معه آفاق من الحياة جديدة ، نحس لها بتجدد في كياننا ، ثم ينقلب هذا الشعور المشبوه بكثرة التردد الى حقيقة نؤمن بها ، وننـدفع في سبيلها ، وتكون العقيدة بانية او هدامة ، ويكون الكتاب طيباً او خبيثاً .

وراح عمر يوما يتفقد خيامه الصغير وقد تركه الهية في يدي هند ، فوجد المرأة قد حفيت بـه ومحضته الود ، فشب في نفسها وقوي بدون ان تريد له ذلك ، كانت تتلهى به ، فاذا الخيام الكبير يخرج عليها من تضاعيف الكلمات والسطور ، فيغزوها بحكمته وسخره فيقهرها ، وتصبح العوبة له ، يرتفع بها تارة الى أجواء من الالحاد يهيمن عليها العدم الرهيب ، ويمشي بها اخرى في مسارب من الايمان ، بلغ فيها الحب والخمرة الركب .

قالت يا عمر ، كانت نصيحتك ثمينة ، ومن الحق ان شاعرك محبوب ، ولكنه جبار خطر ، تعرفت اليه من خلال

شعره ، وصاحبته في خلواته في الحان وفي القفر ، وروحاته الى ضفاف السواقي ووقوفه على الاجداث الدارسة ، وعبثه بالغيب ، فرجعت اعرف اشياء كثيرة ، ولكن اهم ماعرفته هو اني عدت لا املك شيئاً حتى الايمان ولا ادخر شيئا حتى الغد ! فيا لضلال المعرفة ؟ وماذا يبقى امام المرأة اذا فقدت ايمانها وضيعت املها ؟ ثم نهضت مضطربة تقول : احس هذا الثدي ينفجر الثوب ، وثورة في كل مكان مني ، وانت وشاعرك السبب ، فاخرج من هنا ، اخرج قبل ان ...

يا لكبرياء المرأة ! حطميني ها انذا . ولكنه لم يكد يلامسها حتى تلاشت على ذراعيه ، لا ... ضمني الى صدرك ... اوه ... اكثر من هذا . خلنا هكذا للابد . ولم ترد هند ان تفتح عينيها مخافة ان تفسد عليها اليقظة لذة الرؤى وما كانت حالمة ، واخذ الفتى يجمع عن كتفيها شعرها المشعث وادنى وجهه المحمر من وجهها الوادع كرة اخرى ، فاخذت شفتها تندلق غيانة ظمآنة ، واخذت اهدابها تتحرك ، وراعته هذه اليقظة ، وراودته الشهوة الطائفة بها ، فغمر وجهيهما بشعرها وعادا الى حلمهما الاول ، كأن لهذه الستارة الخلقة ان تحجبهما عن العالم .

وتأبى مطالب الحياة الا ان تفرق بين الحبيبين فينتقل عمر باهله الى دمشق بغير وداع وعناق ودموع ، ثم يعود الى بعلبك ليقضي بعض حاجته وفي النفس حاجات ، فلا يمكنه ان يجتمع الى هند الا بين العيون فيعود خائباً الا من رسالة دستها في جيبه في غفوة عن الرقباء ، ستكون زاده طوال رحلته ، وكتاب ايمانه اذا راودته الشكوك رجع اليه فاطمأن قلبه . ولم يكد يستقر به مقامه حتى كتب اليها :

يا هند ! هند !

وكل ما لي من التذكارات ، هذه الشعرات اطبع عليها قبلة ذائبة بنار الالم ، فالله الله يا ساعاتي الجميلة ! كيف افلتت من يدي ابق الدينار من يد المعدم . كل ما في البيت نائم الا قلبي المرجع بدقاته صدى خطوات الوقت الراحل والا قلمي الساكب آخر قطرة من ماء شئونه على وجه القرطاس الذابل ، وصلت الى البيت مساء البارحة ، فعانقني امي واخواتي وقبلنني ، انهن يحببنني كثيراً — وما اجمل ان يكون الانسان محبوبا — ولم يترك لي الزائرون الثقلاء فرصة لاكتب اليك فلجأت الى الليل اشكو وابث ، فخذ يا ليل عني .

قرأت كتابك ، فاحسست بنار الالم المحترقة فيها كلماته تأكل فؤادي . هذه الكلمات الجارية على طبيعتها ، الزاهية ببساطتها ، خارجة من قلب يحب ويحبني انا ، ويلاه كنت ما اكفرني !

تطلبين اليّ ان امكث يومين ، وحبك يمينا ، لو قدرت على قراءة الكتاب قبل الفراق لفديت ساعات الملك بكل ما املك من راحة ، ولكن شاءت الاقدار ان يكمل بؤسي ، فسقتني كاسها ، فشربتها حتى الثمالة ، فاغفري يا هند لبائس ليس كالبؤساء اساءة جرى بها القدر بغير رضائه .

صوني صحتك واحفظي قلبك لشاعرك البائس فانت قيثارته الوحيدة التي يضرب عليها انشودة حبه ، ها انا بعيد عنك وقد سكت قلبك الخفاق يا هند . لك الهناء قد كنت احسب ان البعد يطفيء من نار الجوى المضطرمة فاذا هو يزيدها اشتعالا .

هيهات ، هيهات لن يسكن من المي الا عيناك المنشدتان اغنية الحب . والا فمك الباسم عن نور الحياة اللألأ .

السماء تثلج ، والموقد يشتعل ، والقلب ناره ، وبين كل هذه النيران احس ببرودة الهواء ، واشعر بصقيع الارض يدب في اطرافي ، كما تدب البرودة في جسم قريب العهد بفراق الحياة ، رحماك اللهم .

مريني يا هند اعد الى قربك ، ثم افعلي ما بدا لك من صدوتيه ودلال ، فاني احتمل واحتمل الى النهاية .

اذا نظرت الي جاثيا بين يديك ، ربما تحركت فيك عاطفة الرحمة فترحمين ، واما بعيداً ، فالايام تسليك ، والليالي تنسيك . اني احتاج الى كثير من العطف والرحمة ، ولا حنو امي ولا عطف اخواتي اشبع نفسي وروى غليلي ، وانت انت قاسية ظالمة ، كم املت ان يكون زادي الاخير منك قبلة تطبعينها من شفتيك الملتهبتين على ... فاذا انت كبرياء و كبرياء ، واذا انا ضحية باسمة ، لتحي كبرياؤك ، ولتعش هند الظافرة .

هذه زهرات من البنفسج تفوح بعبير حبي :

هل رأيت يا هند اجمل منها زهرات نواعس الاجفان
فاذكريني اذا شممت شذاها فهي رمز لمهجة الولهان
فخذيها اليك وانضحي ذبولها بعطر منك علها تنضر .

بالامس كانت هذه الزهرات

فوق الغصون وفي الزهور حياة

فتناثرت فوق الاديم لتنتهي

ومن الزهور الى الحياة عظات

لم تسمع هندك هذه النغمة المحزنة يا شاعري ؟

ألم تر البلبل كيف يغني زهرته انشودة الحب ليتفتح قلبها على نغمات صوتـه ، ولما تطـلع ذكاء ! وهندك ضحاكة .

عاشت لك البسمة يا هند ! فهي لغيري .

وعاشت لي آلامي ، فهي لي ولي وحدي .

وغداً او بعد غد سارك قريبة ، كما انت بعيدة ، تبسمين وتبسمين !

وماذا سيكون لي منك !

تمدين الى يدي المرتجفة يداً راعشة لتفلت بسرعة .

خوفا من الناس ، قاتل الله الناس .

وبعد اليس البعد خيراً من القرب ؟

« عمر »

«وقد زعمت انى تغيرت بعدها

الى هند !

اعاتب مهلا .

كتابان ولكل كتاب جوابه ، ومن وراء ذلك قصد في المحبة ، اللهم انها لظلامة ! ما أوهى القلب في حمل رشق سهام العتب ، هذا القلب الذي لم يترك الدهر بين حباته هدفا لرام ، فكل سهم تريشينه يقع على اخيه ، وفي جرح دامل يدميه ، فالله الله في قلوب البائسين .

دهر يجري على غير ما يرضي ، وقدر بما لا يسر يقضي ، وبائس بين قسوة ذاك وظلم هذا يكاد يقضي ، رحماك ربي !

على الشرفة ، والليل في روعته وللنفس وحشتها وفي السماء بدر تأتلق انواره ، يرسلها في الارض وفي الفضاء فتضيء كل شيء وتضيء ظلمة النفوس .

الليل في روعته ، وانت على الشرفة وحيدة ، لاتسمعين الا نبضات قلبك بين جنبيك ، والا وثبات نفسك في خلايا جسمك الحساس ، نزوعا الى الحرية ، الى الحياة ، وثورة على التقاليد النائمة في احضان العقلية المتحجرة ، والظلم الرابي بالوراثة العقيمة .

وان هو الا ان يهدأ القلب وتطمئن النفس وهناً وضعفاً حتى تثور العينان كالبركان المتفجر ، ففي كل مكان دموع هذا سر بكائك ، فابكي ما تشائين ، فليس مثل الدمع يخفف الحزن ، ويبرد الغلة ، ومتى ارتوى خداك ، اعيري عيني دمعا فان دمعي عصى ، وياطالما استجديت العين عبرة تخفف لوعة الاسى ، وتطفيء حرقة الجوى فاذا هي عنها امنع من اللوءلوءة وابعد عن يد الفقير المعدم .

اطلب قليلا فلا افوز بالقليل ، ووالله لولا بقية عزمات في قرارة النفس ، وآمال تتهالك بين صدمات الشك وهزمات اليقين ، لما علقت من ثوب الحياة بظفر ، ولجعلت غدي آخر ايامي عندي .

فما تنكرين؟ ولولا ان لي من هذا الحب سنداً اتكيء عليه لتهدم جسمي الناحل تحت ضربات الحدثان . فاما تعاتبي

فعاتبي الزمان .

استقرب الايام لعل يوما يأتي وفي غرته تباشير السلام ولكنها ايام ما اسفت منها على راحل ، ولا اهلت بقادم ، اعجب لامريء يستدرج خطوات عمره الى الفناء ، كأن السعادة كائنة فيما بقي منه ، والشقاء قد مضى في الذي مضى .

وبعد . فان الدهر ضنين بالهناء ، ولهذه الايام حسبت حسابا يوم كنت استكثر من اويقات الاجتماع ، ذكريات وفي كل مكان ذكرى ، فلنعش عليها زمناً ، حتى يغير الدهر دورته ، وما اصعب العيش على الذكرى ، فانها تكشف الرماد عن نار القلب المخبوءة ، وتثير جوى النفس الدفين ، حين يكون الانسان في اشد الحاجة الى الطمأنينة .

تسأليني عن حوادث ما كان لي ان اطرق الباب اليها يوماً ، فانا اجهل كل شيء ، وللنفس شواغل بالنفس عن الناس وما تعرفين من هذه النفس الا ظاهراً قد يسر الناظر اليه ، وهو جهد ما بلغت اليه الحيلة .

«عمر»

الى الورقة المتحمسة مع نسمات الصباح ، الى الزهرة الظامئة على ضفاف السواقي ، الى الملتهبة حراً في الظل الظليل

الى المنكمشة برداً في حمارة القيظ ، الى الريشة الطائرة في مهب الريح ، الى هند !

احبسي العواطف ، واطلقي العقل ، عسى الحبس يخفف من ثورتها ، فما العاصفة ؟ ولعل الحرية تلك التي تنشدينها في يقظتك ، وفي حلمك ، تقشع عنه ستاراً تنظرين من ورائه الى الاشياء نظرة مزورة ، فتفهمين غلطاً ، وتحكمين ظلما .

ليست النفس آلة كاتبة ، تقدم لها الافكار والعواطف فتنطبع عليها ثم نوزع من نسخها على الناس المآت والالوف صفحات متشابهة قد لا تساوي ثمن الورق ، لا ، فالنفس منشأ العواطف وغديرها الذي تنعكس الافكار عن مرآته الصقيلة فهي اذا لم تتألم ، ولم تثر ، فتخرج حمما او نوراً ، فلا سبيل الى العاطفة ، وكل شيء بلا عاطفة جماد .

ربما تقف النفس مشاعرها على منظر رائع من مناظر الطبيعة ساعات طويلة ، فاذا اجفلت عنه اجفلت لوقت طويل فهي شرود بطبيعتها ، كذلك هي عندما تطلبين منها الغناء وقت الحزن ، فان اناشيدها تثير الاسى لا السرور ، وهي مع كل هذا لا تروع بما فيها من اختلاف الوجوه ، كالبحيرة

بينا ترينها هادئة اذا هي تثور وتندفع مغضبة الى الشاطئ حتى اذا ارتمت على صخوره رجعت عنها مقهورة ، وهي دائما تلك البحيرة .

كل شيء في مكانه ، فلا يخيفك شيء ، قد يتجهم وجه البحر تارة وينبسط اخرى ، ولكن السفينة الجبارة ما تزال تمخر عبابه في غير تهيب او وجل ، وان من طبيعة البحر ان يثور وان يهدأ ، وللطبيعة على هذه الكائنات حق من الكفر انكاره .

وصلتني كتبك كلها ، فلم يته منها كتاب ، فسكني من روعك ، وكما اني لم اعجب لتشابه النغمة في الاربعة الاول ، لم انفر لاشتباهها في الاخير ، ولقد اردت ان تخرجي من الضعف قوة فمثلت الدور ببهارة ، كبرياء المرأة اغبطك عليها ، ولكن جناحيك الضعيفين لم يحملاك طويلا في طيرانك فلم تلبثي ان وقعت — ليس على الارض — بل بين ذراعي .

اردت ان اجعل لكتابك «الاخير» اثراً في نفسي — ليس مراً — فبالغت في حفظه ، كيف لا ؟ وفيه «وداع ولد» أولد وحبيب ؟

جادك الغيث يا ايام الطفولة ، فلكم كنت طيبة على القلب ناعمة على البال .

وبعد، فان النفس نهب موزع بين وبين وبين . واحسب انها اجدر بالرحمة من الغضب ، واولى بالعذر من العذل .

هذا كتابي الرابع اليك . فما اظنه الا داخلا في الحساب - ليس كالكتاب الذي قبله - أليس كذلك ؟ ولنهب ان كتابك «الاخير» الذي فيه الوداع «الاخير» غير داخل في الحساب فتكون الكتب متكافئة ، اربعة لاربعة، فلا علي ولا لي .

ولكن هذا الحب الذي ينقطع في رسالة ، ويتصل برسالة ، أمشدود بخيط مصيص ؟ الحق اقول لك ، لم اعد آمناً على نفسي ، والحبال رخيصة .

لقد طلبت «ورقة صغيرة» جوابا . ولأريك من كرمي ابعث اليك بهذه الرسالة الكبرى ، واطلب الجواب بدوري «ورقة صغيرة» هل تضنين ؟ ربما .

مضى زمن طويل لم تتباوس ، فكيف تريدين ان اترك قبلاتي ، وهل توفينني ديني ام ارفع دعواي ...؟

ربما احضر ليل الثلثاء مع القطار ، ربما .

«عمر»

على الذيل — اراني امجن ، انا الذي لم اعرف للحياة وجها ضاحكا ، ولا قدر لي ان اترسم للسعادة طيفاً ، وقد يهز اناتك المجون .

او تريدين ان تسمعي شكواي؟ ما تعودت ما تعودت بل اعتدت ان ادفن كل شيء في قرارة النفس ، ففي نفسي تجدين كل شيء ، لو استطعت الخلوص اليها .

اردت لك ان تكوني امرأة فرداً ، تسابق الفكر في جريه ، تطير آونة على اجنحة الخيال وتدرج اخرى في مسارب النمال ، فاذا انت امرأة ككل امرأة ، واذا كانت المناظر الخلابة تستهوي لبك ، فسألبس لك كل يوم ثوبا جديداً .

فاتركي النفس تثور لتسكن ، او تسكن لتثور ، صفحة من صفحات الحياة فتحت ولا بد ان تنطوي .

وما كان اهنأ العيش بالقرب منك ، فليت تلك الايام لم تتصرم ، وهل تنفع ليت ! ان ايام الهناء تحضر كالاحلام ثم تذهب سراعا تاركة ذكريات اليمة ، اما ايام الشقاء فترسو طويلا ، حتى ليخيل انها شدت الى البقاء بامراس .

هكذا العيش دمعة فابتسامة ، او بالاصح ابتسامة

فدمعة ، اذ لا نلبث ان نتذوق حلاوة البسمة حتى تمحو مرارة الدمعة كل حلاوة . وفي البسمة لذة وفي الدمعة لذاذات ، ونحن للدمعة مدينون لان كل اللذاذات منها ، ولولا الالم لم نتعرف الى السعادة طريقاً .

ترى هل يقدر لهذا الليل الحالك من القلق ان ينفرج عن غرة الامل الوضاح ؟ فقد سئمت النفس عيش الشك والوهن . وكل شيء حولي ممل مضجر ، فالى اللقاء .

*

« سأعود بعد يومين » هذا ما قاله عمر لامه وهو يترك البيت ، ولم يأخذ حقيبته الصغيرة ، ولا شيئاً آخر مما اعتاد ان يحمله في سفره ، وكانت جادة الصالحية خالية من المارة ، وعجلات الترامواي تمر بين الفينة والاخرى ، حاملة في صعودها بقية الساهرين ، وتكاد تكون فارغة حين تنزل وتلتفع دمشق في الليل بثوب من الهدوء تنام تحته مبكرة في جو تعبق فيه رياحين الحدائق والرياض ، تنام المدينة الساحرة على حياة دقيقة النبض ناعمة الحواشي ، يمور بها وسوسة الحلى ، وآهات الحب المختنقة على ضفاف الانهر ، فاذا ترنحت الاعطاف وصرعها الخمار غفيت باحضان الصبح ، وان للدعة الجبارة

التي نشاهدها على الوجوه صلة وثيقة بجو دمشق وما يحمله في معاطفه من جمال في الطبيعة وذخر بالتاريخ .

اخذ عمر محله في القطار قرب النافذة وكانت المدينة غافية تحرسها انوار ضئيلة متفرقة ، تبين عن معالم لاتستقر في العين ، فاذا تحرك القطار تحركت حتى لتخالها اشباحاً تطوف بالمشاعل . وتبدو « المهاجرين » كالرأس المرصع كلما اوغل القطار في سيره هابطاً الى « الربوة » ، اتلعت هي عنقها الى مشارف الجبل ، فاذا صاقب بردى بين صفصافه وحوره وآذنت الصافرة بالوداع ، ارتمت على احضان قاسيون واستسلمت للنوم .

في القطار

وراح القطار يتلوى وينساب في جوف الظلام كالحية، وقد حجب الليل الاشياء بردائه فلا تطل من النوافذ على لون لها . ولست تراها تركض الى جانبك عكساً كما تفعل في النهار ، فالقطار الان يضطرب ، والابعاد معدومة المقاييس والاشكال ، ولولا صفير القاطرة ووقوفها عند كل محطة ، لظننتها تضرب في قلب الليل وتهتز لكن لا تمشي .

وكان قبالة عمر على المقعد ، رجل عليه وقار السنين ، تداعب لحيته البيضاء صدره ، وفي الزاوية قرب الباب فتى في ميعة شبابه ، وفي يد كل منهما كتاب يطالعه على ضوء المصباح الضئيل المعلق الى سقف الحجرة . والتفت الشاب الى الشيخ يقول له : لست اشاطرك رأيك في ان

الادب في هذا البلد يميل الى الرخوة والتفكك، وانه محكوم عليه بالفناء كادب ، وانا على العكس منك ارى ان ادبنا الجديد ينبض بالحياة التي نحيا ويصور بأمانة الشعور الذي يخالجنا ، وانه ما زال كذلك فهو ادب الحياة الخالد بخلودها .

قال الشيخ : انا ما اردت ان اضع للادب قواعد واصولا هو اجل من ان يتقيد بها ، وانما اردت له عناصر من الانسجام والقوة تترع الحياة فيه بالنضر ، فاذا كان ادبكم يعبر عن الحياة بشباب مريض متخاذل ، فانا اطلب ادباً يمثل الحياة بشباب يفيض بالصحة والانسجام والقوة ، كلاهما ينطق بالحياة وكلاهما يشبه الاخر ، ولكن الايحاء والروعة فيهما يختلفان ، قال عمر اسمحا لي برأي : عندي ان الادب هبة وصنعة ، واما الهبة فمنطلقة كانطلاق الكهرباء في الاجسام ، فهي من وحي وفكرة وشعور ولون وجو ، واما الصنعة فهي قدرة الفن على التاليف بين هذه العناصر كلها وسكبها بقوالب رائعة ، فالادب صنعة في هبة .

قال الفتى : لا احب القوالب لانها جامدة .

وقال الشيخ : ان فنك الذي تتحدث عنه غامض وانا احب البيان .

فقال عمر : الادب كالمرأة كل ما كانت غامضة كانت لذيذة .

وهنا صفرت القاطرة صفيراً متواصلا ، ثم توقفت عن السير و كثر اللغط وتعالت الضوضاء وهرع الركاب الى النوافذ مدفوعين بحب الفضول ليروا اي امر حدث فلم يتبينوا شيئاً لشدة الظلمة ، ومرت برهة فخفتت الاصوات وعادت العجلات الى الدوران ، واستقر كل في مكانه يهوم النعاس برأسه ، ودخل المفتش يتفقد المسافرين كعادته و كان رجلا لطيف المعشر ، انفق خمس عشرة سنة من عمره فوق هذه القضبان الحديدية السوداء ، يعرف فيه زبائنه حب العبث ، والنكتة دائماً على لسانه ، يصغون اليه وهو يرسلها بين بطن مندلق يرتج على الضحك فتخاله يقع الى ركبتيه ، وبين وجه يتسع فمه وتتقبض عيناه ، وتتدانى غضونه ، ويطفو عليه ملمح جاذب تنبسط عليه النفس ، ويمضي في ندره حتى ينثل جرابه . كان في هذه المرة تبدو على وجهه امارات الاهتمام ، كفكف لهاثه ورفع ذراعيه باستقامة صدره ، ونفض يديه كمن يدفع عنها القدر ، وقال : كاد السائق المسكين ان يزهق روحا لولا القنديل الساهر على الخط ،

لقد حنقت على الرجل لانه ايقظها ، ما هذا الحلم الذي لم يهزه فحيح القاطرة وصفيرها ، انها لمجنونة .

— ولكن من ؟

— امرأة !

قال الفتى : أمرأة في هذا الليل البهيم وقنديل ؟

وقال الشيخ : وتموت على القضبان ؟ قال عمر وقد هز رأسه : المرأة في كل مكان .

وراح القطار يغذ في سيره ، وقد اطل الصبح على كتفي الوادي ، واخذت الاشياء تستيقظ من سباتها وتخلع اردية النوم ، وبدا النهر عند المنعطف يتلوى مدغدغاً اقدام (يحفوفه) توقف قليلا ثم ترك القرية تفتح اجفانها وتتمطى ، ولم يكد يترك الوادي حتى استقبله سهل البقاع الضاحك لمطلع الشمس ، في مشهد فذ تخال السماء كورت على الارض وانتهت الدنيا على قمم لبنان . وتهب على هذا السهل في غالب الاحيان شمالية حارة في الصيف ، قارسة البرد في الشتاء تعدن اياما معدودة حتى تناوحها جنوب فيعتدل العدان . وكان الصباح راجفاً تحت انفاس الشمأل وقد بللت حواشيها على ضفتي الليطاني . وكان عمر مضطراً ان يستبدل بقطاره القطار

الذاهب الى حلب ، فودع رفيقيه ، ورفع قبعة معطفه على عنقه ، ووضع يديه في جيبه ، واتجه الى غرفة فارغة فاستقر فيها ، ولكن نفسه لم تستقر فيه ، والصافرة تمر كالسهم على احشاء السهل الفسيح لا تلوي ولا تضج ، تحمله الى البلد المقصود ، بل ان معالم بعلبك اخذت تلوح ، وها هي العواميد الستة تدلف الى لقائه على انقاض الهيكل تسندها اكف جوبتير ، ترمز الى مجد هذا الاله الخالد في فن عبيده الذين ضحوا بمواهبهم وعبقرياتهم وجمالهم على مذبحه الذي لا يروى الخالد في عباد فنه ورواده من اقاصي العالم ، الى ان يفنى الفن من الارض ، ويغيب الجمال ، ولن يفنى الفن ولن يغيب الجمال .

واخذ عمر يتصفح الوجوه في المحطة عساه يرى وجه هند ، فلا تقف عينه الحيرى على واحد منها ، وهو لا يدري لماذا يفعل ذلك وفيه مثل اليقين انها لا تاتي ، وانها ليسا على هذا الموعد ، ولكن العشاق غير الناس ، يتطلبون صورة من يحبون على كل وجه ، وفي كل مكان لا لانها تفضل كل الصور ، بل لانهم يحملونها في عيونهم ، فلا يرون الاشياء الا من ورائها .

وكان نجيب وهو سائق عتيق ينتظر على عربته متقفقفاً وقد كبس رأسه في طاقية صوفية ، وادخل يديه في ردنيه . صعد عمر الى العربة واستند الى الزاوية اليمنى ولف رجلا على رجل ، ولطم السوط عرف الحصان فسارت العربة تهبط وترتفع على الاخاديد والحفر ، حتى اذا شارفت المدينة التفت السائق قائلا : «الى البيت يا معلمي» ، فانتبه عمر مذعوراً كانه يفيق من حلم بعيد ، والتفت الى جانبيه ، فوجد نفسه في قلب البلد وعلى قيد مئتي خطوة من البيت ، والعربة تجري فاستوقفها وصرف السائق ، ثم وقف في مكانه لا يبرحه كانه تسمر اليه ، فالى اين يذهب ؟

هوذا بيته الذي تكشفت الحياة لعينيه عن تربه وورده وسمائه ، فيه مدارج طفولته ، وملاعب صباه ، وعلى كل شبر من ارضه الخرساء الف ذكرى من عبث وعبس ، ومن مرح وبكاء . هنا شطر عمره الغض ، وتاريخ شبابه الثائر في هذا البيت ، شهد الموت يصارع الاب والاخ فيصرعهما ، وشهد الحياة تكشر له عن انيابها ، وتدافعه بمخالبها العاتية فتدميه ، في هذا البيت ثمانية وعشرون عاماً منه ، تحيا منسلخة بعيدة عنه ، ذلك ان البيت لم يعد ملكه حين حالت الدنانير

العسجدية بينه وبينه . عجباً لهذا الاصفر المخادع الذي يقرب الابعاد ويصل بين الاشياء حيث تنعدم الصلات ، كيف يقف سداً بين المرء وبعضه ، ليس هو غنى الاغنياء الذي انتزع منه بيته الموروث ، ولا الفقر ، ولكنها حاجات الكرامة . وهل المال لشيء اكثر من قضاء حاجة ؟

اي شيء يربطنا الى هذه الجمادات التي ندعوها بشره (بيوتنا) ؟ أهو غرور التملك ياترى ؟ ام ان هذه الروابط تتجاوز المادة الى اشياء اسمى جرت في دمائنا ، ونمت مع عقولنا ، واختلجت عليها قلوبنا ، فلا يمكننا الانسلاخ عنها او الانفلات من تأثيرها ، لست ادري ، ولكني لو اعطيت القصور الشاهقة ، لا انفك احن الى هذه البقعة الضيقة من الارض ، التي لاصقت قلبي ، واصخت الى دقاته الاول حين كنت اعثر وحين كنت انام ، فيا مهد حياتي الوادعة ، لقد شطت بربيبك النوى ، ولما عاد اليك ليطمئن في جانحك كاد يتوه على بابك الموصد ، ويا ذكرياتي السجينة سلام .

كاد هذا الموقف يشغل عمر عن نفسه ، وعن الامر الذي جاء لاجله ، لولا يد وقعت على كتفه تربت عليها ،

فالتفت الى اليد التي انتشلته من غمرته فاذا هو امام احد رفقاء الطفولة ، سر كلاهما بالاخر في غير دهشة، وتصافحا واخذا باحاديث لا لون لها ، ولا صلة بينها ، غير انها مفكهة وخفيفة تموت على الشفاه بدون ان تترك اثراً بعدها ، وافترقا على ابتسام كما التقيا ، وكان عمر اوسع بسمة من رفيقه ، لان في امتداد ابتسامته كان شيء من السخر من نفسه يسمع في شبهة قهقهته في اعماقه .

او يذهب الى هند ؟ ولكن فيم التساؤل ؟ وهو على باب منزلها يكاد يدفعه بانفه ، تقوده قدمان لم يدر أكان يطأ بها الارض ، ام كان يمشي في خياله ، وها هي خادمتها تعود باكواب القهوة المشروبة ، أزوار دائما ؟ الخادمة التي حملت اليه كتاب المرأة، هي بعينها .

هيه يا زلفاء ! وابتسمت زلفاء من الاذن الى الاذن ، واخذت تتكلم بدون سؤال « اشتقنالك معلمتي في غرفتها ، كيف الشام ، اليوم استقبالنا عندها ناس ، تأخبرها و .. » لا ، لا ، انت طيبة القلب يا زلفاء ! انصرفي الى عملك ، وساقوم بنفسي بهذه المهمة ، وعادت البسمة تنتشر على وجهها ، ولكنها في هذه المرة

كانت ماكرة ، تشي باشياء كثيرة احس معها عمر ان الخادمة تهز الستارة التي تفصل بينهما وتكاد تنتزعها ، فقابلها بابتسامة مثلها واتجه الى غرفة هند .

عند هند

وكانت هند جالسة على مقعد يواجه الباب ، وعلى مقربة منهـا سيدة رضيت لنفسها ان تقف على الثلاثين ، تأنقت في ملبسها والفضل في ذلك للخياطة ، وارادت ان تكون انيقة في ابراز محاسنها ، فلم توفق الى ذلك ، فبدا فمها المغطوط في الاحمر كرقعة في وجه مطلي بالبودرة البيضاء ، تشي بسمرته حنية انف يظهر انها لم تمر عليها كفها ، ومع ذلك فالسيدة مزهوة بنفسها ، لا يغرها شيء مثل الثناء ، فاذا سمعت اطراءك اقبلت عليك بالحديث ، تزم فمها تارة ، وتفرج شفتيها البلهاوين اخرى ، وتشير بيدها ، فاذا رأت منك اقبالا ، رفعت صدرها على نفس واسع ومالت بعنقهـا ، واغمضت جفنيها لتفتحهما فترى تأثيرها فيك ، وتنتظر ان تصانعهـا ولو بابتسامة .

وكانت تتكلم عن فضائل العائلة والحب الزوجي مع

ان النزاع على اشده بينها وبين زوجها ، ويكاد يؤدي الى الطلاق . وكانت تتوجه بالحديث الى شاب انيق الثياب ايضاً ، يبدع الابتسام ، بارع الغزل ، قضى شطراً من حياته في باريس يدرس الحقوق ولم ينته من درسه ، وكان شديد الانتباه اليها ، لا تفارق عينيها عيناه ، حتى اذا توقفت عن الكلام لاهثة اخذ هو باطرافه ، فاثنى على فضائلها ، فرآها تصغي اليه من غير ان تسمعه ، فاطرى ذكاءها ، فحدقت اليه ببصرها كأنها تنتظر منه شيئاً اكثر من هذا ، فراح يبدي اعجابه بجمالها وبهذا الفتون الذي يقصر عنه فتون الباريسيات ، فضحكت له واقبلت عليه تلقف كلماته ، ودار الحديث دورة فاذا الشاب يعرض مغامراته ، ولكنه عرض لا يحوي شيئاً من لذاذة السينما ، وانما هو في مثل عرض الباعة المتجولين امتعة كسدت في واجهات المخازن ، وغير منها كر الايام ، ولكنه لا يتورع عن نشرها كلما استفرد زبونا جديداً .

وفجأة التفتت السيدة الى عمر تسأله عن الشام . فقال ان الشام ياسيدتي جميلة ، ولكن انت ؟ اراك كحب الآس في الشام كل ما كبرت حليت . انت ماردة على الشيخوخة ،

فلن تجسر ان تمد ميلها اليك لتضع على وجهك غضناً ، او ترسم في رأسك خطاً ابيض . قالت انك تبالغ يا عمر ، فقال ان المبالغة ترفعنا الى جو من لذة النسيان فننعم ولو الى امد قصير . قالت : والكذب ؟ فقال : اما الكذب فنعمته اعظم ، واي شيء من السآمة والحقد كان يسود مجلسنا هذا لولا الكذب . فشزرته واسبلت على غضبتها بسمة ولم تعد .

وتعالت اصوات الزغردة من مكان قريب ، فارهفت الاذان ، وكان يتخايل بين اصوات النسوة الرنانة صوت زجال ، فما كادت تسكن تلك النغمات المختلطة حتى تعالى ينشد في بحة كاختناقة الوتر :

رمان صدرك دبل تا فرفكه بديّ

لله ما اشد هذه الحاجة التي لا ترد ، قال عمر ، وما اجمل هذا القول . انهم الشعراء هؤلاء الزجالون ، ومضى الشاعر في عتاباه والنسوة يزغردن له عند كل بيت .

وتوجه الزائرون الى هند يسألونها ، فقالت : عرس بستاننا ، سيتعللون اليوم والغد ، ويكون الزفاف في الليلة القادمة وستعلل زلفاء مع القوم ، قالت ذلك ، وقد رمقت عمر بنظر خاطف ، وقفت به تأكيداً لارادتها على الخادمة

التي كانت تقدم لعمر كاساً من الماء . ولم يبق لعمر ما يفعله بعد هذا الوعد ، فهم بالانصراف مودعاً ، فاسرت اليه وهو يضغط على كفها ، نحن لنا الليل .

*

الليلة زرقاء ساهرة النجم ، والقمر يطل على الغرفة من وراء زجاج النافذة ، ويحدق اليها بعينين صائبتين ، وهند تنضو ثيابها ، يا للقمر ! رازحاً لا يبرح مكانه وقد خلع الحياء ، عاشق هو الليلة ، انظري ، انظري ! ان لعابه يسيل على ثدييك ، فاحجبي عنك هذا النهم ، او صدي النافذة عليه ، نحن لنا الليل ، الليل الذي لا اقمار به تشركنا ، ولا نجوم له ترمقنا .

يا لك من نهم انت !

لست انا بل الحب ، فقومي نصب الحياة في اكواب للحب لا قرارة لها . ولا الاكواب تترع ، ولا الحياة تنفق ، اني اخاف الغد الفاضح النمام ، وليس للذات من غد الليل لنا ، فلنكن نحن الليل .

البستاني

هوذا ابو قاسم البستاني ، عريس الغد ، في قميص مثني الصدر ، مسبول الى الركبتين ، بقبة غرقت فيها رقبته الى نصفها ، وسراويل ازرق شد عليه بزنار من القطن الاسود على رأسه لبادة سوداء ، وفي قدميه نعل مسمر . جاء يدعو معلمته الى حفلة زفافه ، ويستأذنها ايضاً ، تلوح عليه علائم النشاط بين خمسين سنة رسمت خطاها على وجهه . ولقد اثار فضول عمر ، ان الرجل يتزوج في هذه السن على رغم (ابي قاسم) ، مع ان عادة الطبقة العاملة ان تبكر الى الزواج ، ولا بد اذن لتلك الكنية من قصة ، ولهذا الزفاف من سبب ، وراح عمر يسأل ابا قاسم ، في شيء من السخر والفلسفة اللذين اعتادهما الشباب ، عند الكلام عن هذه الطبقة الفقيرة العاملة ، او عند التحدث الى فلاح كابي

قاسم ، فيختبرون فيه آراءهم ، ثم يعدون كل ما يأتيه ضربا من السخافة او البله ، ولو كان فضيلة، وهل تسكن الفضيلة بيوت الفقراء الخاوية ، او تقيم تحت ثيابهم القذرة ؟ وهي لو فعلت لاصبحت عيباً بمجرد وجودها هناك ، وكيف يجوز ان تشترك الاشياء في الاسماء ، في القصور ، وفي الاكواخ .

وقال له عمر : لماذا تتزوج وانت في هذه السن وابو قاسم ؟

فاجاب الرجل : ولي زوجة ايضاً، هي ام قاسم ، ولكنها لم تلد لي الا ولداً واحداً ، والفلاح بحاجة الى اولاد يعينونه على اعماله الكثيرة ، ويحملون معه اعباء الحياة ، فأنا وابني لا نكاد نفي بحاجات الفلاحة والزراعة ، ونقوم على بيع غلة البستان والكرم ونحطب ، بينما تهيء ام قاسم الطعام لنا وتحش البقر . وهي راضية عن زواجي ، فالمرأة الجديدة ستوفر عنها كثيراً من المتاعب . وسنشتري بقرة حلوباً تنصرف الى العناية بها فنوءمن رزقاً جديداً ، وقاسم يريدان يرى له اخوة يساعدونه ويحبونه ، واما الرزق فعلى الله . لقد اشتريت اول الصيف بقرة عجفاء بليرتين ، وصرنا جميعاً نحشها ونعلفها ، واليوم صاحب الخمس عثمانليات ما يشتريها . ولكن

لماذا انت لا تتزوج يا عمر افندي ؟

اخذت عمر دهشة المفاجأة فلم يجب، والتفت الى الرجل فرآه يحدق اليه منتظراً جواباً فقال :

انا ... وراح يسأل في سره ، ولكن لماذا ؟ وغشت وجهه كآبة ، ثم انبسطت اساريره ، فقال : لاني احب وتطلع الى هند مبتسما ، كانه وجد شيئه الضائع .

فقال الفلاح : غير قانع ، وانا احب ايضاً، احب زوجتي وابني ، واحب بيتي وبقراتي ، واحب الارض، هذه الارض التي نلتصق اليها اكثر من كل شيء آخر ، اعطيها من قوتي ومن قلبي ، فتعطي الغذاء والسرور لى ولاطفالي ولكل الاشياء التي احبها ، ومع ذلك فاني متزوج الليلة .

شعر عمر لاول مرة في حياته ، بفشل مريع ، لعلمه وفلسفته ، لشبابه وغروره ، واحس ان كبرياءه تحطمت امام سذاجة هذا القروي ، وبدت له الاشياء عارية من ازيائها المصنوعة حين اقترب من الطبيعة ، وبدا له فيها جمال ساذج ساحر ، فصاح معجباً بالرجل ، انك فيلسوف من حيث لا تدري فاذهب ! بارك الله لك في زواجك وفي اولادك في انعامك وفي ارضك، انتم الناس ايها الفلاحون، لكم الحياة، واما نحن ..؟

نعم نحن لا نصلح لشيء ، ومرت امام عيني عمر صور كثيرة للشباب ، فرآهم ينفقون الايام كسلا في المقاهي ، يعلون صدورهم بهوائها الفاسد ، ويحشون روءوسهم بسخافات يسمونها نظريات ، وهم يتداولون (الشيش بيش) ، اويقامرون في زاوية ، ثم ينقدون ويقرظون ، ويمدحون ويهجون ، ويبنون وينقضون ، ويسكنون ويثورون وهم على مقاعدهم رازحون فاذا فرغ احدهم من الخلق والافناء ، واراد ان يستريح ، ذهب الى الحانة ليقتل بالسلافة همه ، او لينسى نفسه ، فيصب دنياه في جام ، ويجمعها على شفة . ورآهم يعمرون القصور الشاهقة في الخيال ، وينامون على حصير مثقلين بالهموم ، ورآهم ...

بل ما له والناس ، لم لا ينظر في نفسه ، او ليست هذه النفس مرآة الالوف منهم ، يحيون فيها تحت قميص من الكتان البسيط . ان قرويا واحداً خاملا يعيش على هامش الحياة يتحدى بسذاجته نفساً جياشة الاماني بعيدة الاغوار ، فتتخاذل وتبدو نقائصها ، مخيفة ، معيبة ، فاضحة ، فهل الحب هو الذي منع عمر من الزواج كما يدعي ؟ لا . لا . انه يكذب ، انه يخادع ، ولا يكذب الفلاح وحده ، بل يكذب نفسه

ويخادعها ، فيسمي لها الفسق حباً ، ويغذيها باللذة بدل السعادة فيشبع شهوته الجسدية ، وتظل روحه جوعانة ، ولكم اتى عليه حين تنعدم فيه الشهوة الجنسية ، وحين تتلاشى اعصابه ان ينسل من ساعدي المرأة ويتمنى لو يشيعها قبل ان يضب على جسده ثوبه ، بعين لا محتاجة ولا راغبة ، وفي نفسه بعد ظمأ لا يدري له سبباً ، ولا يعرف كيف يرويه ، كأن المخلوقة المسكينة لم تنفذ الى ابعد من جلده . فاذا فكر بالزواج ممن يحب ، خشي على حبه ان ينحره بسكين ذهبي ، وهو يسمنه بحرمات الزواج ، كالعفة ، والصدق ، والحياء ، فراح مذبذبا يحس بالضعف يعصف في جوانحه ، فلا تستقر رجله على موطيء .

أليس هو عمر نفسه ، الذي يتهيب الزواج ويتحاماه ، هربا من مسؤولية العيلة ، ومن رغيف الاطفال ، فيزن الاعمار بالدرهم ، ويقيس الحياة بالدينار ، ويقف مكتوف الايدي مشدوهاً امام ارقامها المرتفعة ، ويدعو نفسه بالنسر يملك الفضاء ولا يجسر ان يبني له عشاً صغيراً ، يأوي اليه في ساعات تعبه وسأمه ، وفي هنيهات راحته وسلواه ، بل في ساعة موته بينما طائر صغير ، مهيض الجناح يبني من القشة بعد القشة

عشاً قد يكون أحب اليه من ملك الدنيا ، لانه دنياه الصغيرة فيجلب اليه الحب من اقاصي البطاح ، وينقل الماء من اعماق الوديان . وطالما فكر عمر بالزواج من فتاة موسرة تغنيه عن تكسب العيش ، وتقعده عن جهاد الحياة ، فينتظر الاقدار ان تحملها اليه ، مجلية كالشمس الطالعة ، تثقل عنقها اللآلىء ، ويملأ حقائبها النضار او هو يدب اليها كالحشرة في طريق قذرة ، تقوده سمسارة تقبض على جاهه وشبابه وادبه في يد ، وتبسط اليد الاخرى لتقبض فيها الثمن ، كأن عهد النخاسة في رونق عزه ، وهكذا يود لو يبيع نفسه بيع السلعة وهو يتغنى بالحرية ويمجدها فيما يقول او يكتب .

لقد سقطت الحياة ، حين لم يبق لها مثل اعلى الا الذهب الوهاج ، وسقط الشباب حين لم يعد لهم هدف ابعد من لذائذهم الشخصية وتغذيتها بالذي ينفس او يهون ، اما حق الانسانية الشاملة عليهم ، وارتباط حياتهم الصغيرة بالحياة الكونية الكبرى ، وحق الارض عليهم بالعمران ، فامور منكورة منهم ، لا يريدون ان يتعرفوا اليها سبيلا وعرة تندي جباههم بعرق الحياة ، وهم لم يتعودوا ان يروا هذه الجباه تندى الا بعرق الحياء ، فتركوها للفلاح ، واغدقوا

عليه القابا مسكينة ، كلها سباب وشتائم في افواههم كالجاهل والوضيع ، والقذر ، وهم لو انصفوا لادركوا ان الحياة يقوم نصفها الحي بهذا الفلاح ، وبهم نصفها المفلوج .

هل انكرت هند على عمر حيرته ، وادركت هذا الصراع الهائل الذي اشتملت عليه نفسه ، ونمته اسرة وجهه فوجمت وعلتها صفرة الريبة .

كانت تتطلع الى عمر منتظرة ان يستوقف الحب هذا الراحل ، فيتقدم اليها ويأخذها بين ذراعيه ، ويعصر رمق الحب فيها مرة اخيرة ، ولكنها ظلت تنتظر ذاهلة الى ان ايقظتها اقدامه تخبط على البلاط وهو يخرج ، فاحست ان شيئاً فيها يتهدم وينهار . فقامت الى المرآة فاصلحت من شأنها وآثرت ان تترك الغرفة التي تخايلت فيها المأساة ، ورف عليها الموت بجناحه لحظة من الزمن .

ومرت بخاطرها ليلة الامس ، فاخذت تفتش في طيات الظلام ، بين نزوات الحب ، وتبرج الشهوة ، فطلع عليها الشك برأس دقيق قبيح ، مكشراً ، واصغت الى همسه الناعم فاذا هي تردد « نعم ، نعم ، لم تكن عينه تلك العين التي اعرفها ، وكنت اقرأ فيها كما اقرأ في كتاب مفتوح ، اين

فيها لمعان الحب وذوب اللذة ؟ لقد تغير وافسده البعد ، وقد ينسيه ، عمر ، عمر ! الويل لك يا عمر ! اسمح لك ان تذهب بلا وداع وان تزدريني ، وان تجفوني ، ولكن لا اسمح لك ابداً ان تحب غيري والويل لك اذا فعلت »

وانتهت ثورتها الصغيرة على وجه زلفاء الضاحك ، وقد اخذت تسر اليها باشياء قبل مغادرتها البيت ، يظهر انها لم تكن غريبة عنها .

وصل عمر الى دمشق منهوكا كأن هذا السفر الصغير اجهد جسمه ونفسه ، فاستراح ليلته ، ولما ضحا النهار وتقلصت ظلال الاشياء وحومت العصافير على السواقي ، كتب الى هند :

هند !

قرأت في عينيك معاني الشك المتسرب الى قلبك ، فحذار ان تقتربي من هذه التجربة ، فانها تسلب الراحة ، ولا بد انك عاتبة لوقفتي الذاهلة ساعة الوداع وحق لك العتب . لقد كنت غريباً عن نفسي تلك الهنيهة منسلخاً عن الشعور الذاتي مضيعاً في غمر واسع الارجاء بعيد الاعماق فكنت كذرة الغبار الهائمة في الهواء ، وكثيراً ما تعرض

لي هذه الحالة اللاشعورية فأعيش بها اياماً لا ساعات، يطوف بي الاسى الساخر من كل جانب ، ويساورني الضجر المقلق وانتكر لاحب رفاقي الي ، فاميل عن رؤيته ، واهرب من عشرته ، وكم تظهر غريبة هذه الاطوار للذي لم يخلص اليّ .

يقولون ان الالم يزيد الشعور ويلطف الحس ولكني اراه اذا تراكم وتواصل ، يقتل الشعور ، ويشل الاحساس . وانا في هذه الفترات ، ممن يصح عليهم القول الثاني ، لذلك لا تعذلي بل فاعذري .

ويقولون ان الراح يروح بالهم ، ولقد رأيتني كيف اسكر لانسي النفس همومها وآلامها ، واذا ما استيقظ على هذا الدل والنفور ، فعبثاً احاول ما احاول ، فالله الله لي يا هند !

قلت لك انني بائس وشقي وفقير من كل شيء وقلت لك يجب ان يكون حبك لي عظيما بقدر بؤسي وشقائي ليقوى على حملها ، ليست الخمرة التي اوحت لي ان اتكلم ، لا اني اعيد الان ما قلته بالامس ، وانا غير شارب ولا ثمل .

فما بالك ؟ أتريدين ان اكون فقيراً حتى من الحب ؟

انها لظلامة ، ولكن دموعك تلك يا لسخائها ، بل لعل الامر ليس بيدك واني غير عاذر .

ان حبك ضعيف لانك انفقت منه كثيراً فيما سلخت من ايام حياتك ، والبقية الباقية لي لا تنقع مني غلة ، الآن علمت اني اطلب مستحيلا فعفواً عفواً ! فانما الذنب للايام ان تلك اخذت الكثير وتركت القليل ، لا لك .

« عمر »

أألى ليلى ام الى هند !

انتهت المرحلة الاولى من مراحل الحب ، وكانت ارضاً خضراء ، وبساتين غناء ، ترقص المياه في احشائها ، ويتغنى الطير على افنانها ، فمتعت الطرف من ثوبها الاخضر الموشي بالوان الزهر من متشابه وغير متشابه ، ونزهت النفس على اغنيات الطيور واناشيد المياه .

ولكن الزمان لا يدوم على حال ، ولا بد لمن يعمل رحلة هذا العمر ، ان يمر بارض قاحلة جرداء كما مر بالرياض الغناء ، ولكل من هاتين جمال غير منكور ، وتأثير على النفس يبعث الحياة في جوانبها الراقدة على فراش الراحة الوثير او المتضجرة الكسلى ، لكثرة التشابه في العيش .

غير انك وقفت على باب هذه المفازة وقفة الجبان المتردد يرقب كل شيء بعينين خائفتين، فمشى رفاقك وبقيت لوحدك حائرة .

الم ترى الى تلك التي تطأ الشوك بقدمين داميتين، وعينين لاصقتين الى كوكب الزهرة الوضاء ، كيف تحيا على الالم وبلذة تحيا .

انك تعبت يا هند ولم تدم لك قدم بعد ، فيا لك من تعوب يا ليلى ! اردت ان يتغير اسمك من هند الى ليلى الى ... واذا انت تتغيرين مثل ما يتغير ، كانت نفس ثائرة وكانت نفس جائعة فشبعت هذه ، وهدأت تلك ، ولماذا ؟

غداً تلجأين الى الدموع لرد هذه الشكايات والدموع التي تريقينها تغلب كل قوة فيَّ ، ولكنني قبل هذا اريد ان اعرف كيف تتبدلين ، ولم ؟...

او تحسبين اني اجهل . كلا . ولكن معرفتي مخيفة وهائلة ، فما اريد ان اطلع عليك بها .

لعل كتابي الاول وصل اليك، ولمَ لايصل؟ وستجيبينني على الاثنين ، اليس كذلك ؟

« عمر »

هند !

عجباً، الم تصلك رسالتي الثانية، فكتابك لم يشر اليها قط ، ان حضوري الى حيث تمكثين الان يتعذر ، وربما تركت جلق بعد مدة قليلة ، الى مدينة الجفاف والتعاسة ، هنالك نلتقي .

لا تقولي بئست هذه الحياة ، فهي ان نعمت وان بئست ستمر ، وكل شيء فيها يسخر منا ، فلم البكاء ولم السهر ؟

رب عين ضاحكة آنس من باكية ، وطرف راقد امتع من ساهر ، وقد يشجي البكاء وقد يضنى السهر ، وباطل كل شيء في ذا الوجود ، الا الوجود ذاته . فمن قدر له ان يتمتع بما يستطيع من اللذة ، يلمس السعادة اكثر من غيره ومن ابتعد عنه ، يعيش في جحيم مهلك ، من نفسه ومن المظاهر وليس من سبب في سعادة المرء او شقائه الا ليده ، هذه اليد التي قد لا يكون مختاراً في تسييرها ، فتقبض على النار بينما هو يريدها والجة في الماء .

« عمر »

الى هند !

حقاً انك كثيرة العتب يا هند ، اتريدين مني ان

اكذبك حتى في عواطفي ، ذلك امر ما تعودته قط ، كان زمان يحلو لي فيه الكلام ، وهذا زمان يحبب الي الصمت . فهل في الصمت رذيلة تؤخذ على المرء ؟

الا يكفيك اني لم اعط شيئاً مني لامرأة ثانية ابداً ليس لاني لا املك شيئاً اعطيه ، بل لاني لا احب الشرك .

ان المرأة التي تحب ، يشغل الحب كل حياتها . اما الرجل فلا تتطلبي منه مثل هذا ، اذ لو استغرق الحب كل نواحي حياته لا صبح عدما . اليس كذلك ؟ فقليلا من الانصاف .

« عمر »

الى هند !

ان الكتاب الذي عرف اليك الحب بالصورة التي تحفظين ، منيع عليه ان يحوي بين دفتيه اثراً من العاطفة والخيال ، عجباً لهؤلاء الناس كيف يجسرون ان يرسموا بالمادة سر الحياة الذي لم ينكشف عنه ، وقوة الالهة في روعتها ، يوم خلق هذا العالم . فاطرحي هذا الكتاب اللعين فليس الحب تقليداً ولا تفهما . اصحيح ان الحب هو الذي اهاب بك لتقولي لي « اذهب وارم نفسك في احضان الرذيلة ربما خف ما بها من البلوى وعانق الغواني وقبل الفتيات

واشرب الخمر لتنقضي تسعة شهور كاملة واذا عدت الي وجدتني بانتظارك »

ايتها المجنونة ! اذا انا افنيت بقية الجلد في حمأة الرذائل فماذا يبقى لك غير حب بال ، او ترضين ؟ واذا تناثرت عواطفي بين ايدي الحسان ، وعلى احضانهن كما تتناثر اوراق الزهرة الرطبة على الحضيض ، او تظنين انه يبقى لك من القوة ما تنظمين بها وريقاتها النثيرة وتعيدين اليها رائحتها ونضارتها . اجيبي ؟ « عمر »

ولزمت الصمت هند ولم تجب ، فهل كان وقع الرسائل عليها شديداً فحردت على عمر ؟ وانفت من الخضوع لفلسفته وانكرت عليه تمرده التقي ، وكانت تريده ان يقول لها : لقد اجبت داعيك الى ما اراد ، فوهبت جسدي لـلذات ، ونحرت حبي على شفاه الفتيات ، وشهدتهن يرقصن على جثته رقص الفسق والفجور ويخضبن بدمه اقدامهن البضة ، و كنت اصفق لهن فتدوي الدنيا في صدى كفي ، او شيئاً مثل هذا يشبع الكبرياء الحاقدة التي تتأكل قلبها ، او يغذي ذلك الشك الضعيف ، الذي اخذت تحنو عليه ، وتتعهده بالعناية كل يوم بعد يوم ، لتتمكن من ارسال صرختها الداوية

حين تقف مع عمر وجهاً لوجه ، وتبسط له الميزان وقد ثقلت كفة الشر فيه ، ام انها صابرت الايام على مضض وقد خاب املها ، فتريثت لتفجاؤه بالدموع الغزار ، التي تعرف انه لا يقوى على مغالبتها ، ومن ذا الذي يقوى على دفع الدمعة وهي على صغر جرمها تسع ذنوب الارض ، وتطهرها تطهيراً .

وكان عمر ينتظر ان ياتيه جوابها ، وينتظر ان يرى دموعها سالت على الحبر ، فخطت ما بين السطور اشياء اسمى مما يخرج من شق القلم . وكان يعرف انه قسا عليها ، وانه قد يكون اهانها ، ومن طبيعة المرأة ان تابى الاهانة ، خصوصاً اذا اصابت موضع ضعف منها ، والمرأة ككل شخص آخر ، احب شيء اليه معايبه ، ما زالت خافية على الناس بل قد تكون سبب زهوه ، واليها مرد كبريائه ، فاذا انكشف عنها الستر ، انكرها ، واشمأزت عينه من النظر اليها .

وطال عليه الانتظار فاقلقه ، واخذت الظنون تدب الى رأسه والى قلبه ، واصبح حيران لا يدري أيذهب اليها فيستغفرها عما فرط من الاساءة منه ، ام يحتال امراً فيستقدمها الى دمشق ؟

ام حسن

ام حسن امرأة سمراء اللون ، مديدة القامة ، بوجه لا يوحي اليك شيئاً عند اول نظرة . لكن ذكاءها يخلع عليه رونقاً فلا تنفر العين منه ، ولا تقف عليه ، فاذا اخذت بالحديث ، رأيت في تقلب عينيها لحظاً دقيقاً ورأيتها تسوق اليك الكلام سوق عارف خبير ، مرن الاخذ والعطاء ، ومارس البيع والشراء .

وكانت ام حسن تصيف في بعلبك كل عام ، وقد حبب اليها الصيف ، ما وجدته في هذه المدينة ، من هواء طيب ، وماء عذب ، ورخص في العيش وبساطة في الحياة . وتقضي الصيف كما لو كانت في دمشق ، تتأبط طراحة لا تزيد عن اليها ، وترتاد المرجة والنهر فتجلس الى ضفافه اصيل كل يوم ، في حلقة من الصواحب انسن الى لطفها الشامي

وحديثها الناعم ، ولم يمض وقت طويل حتى عقدت الصداقات بين ام حسن وصاحباتها ، وارتفعت الكلفة بينهن ، ففتحت لها الابواب ، وصارت تدخل البيوت بين التأهيل والترحيب في الصباح وفي المساء وحين تريد ، وكانت هند اشدهن صداقة لها ، واعلقهن بها ، وكثيراً ما كانت تهجر ام حسن غرفتها الضيقة وتمضي اياماً وليالي بضيافة هند ، فاذا ما انقضى الصيف ، وصيف ام حسن يمتد الى قلب الخريف ، وأبت تريد السفر ، شحنت لها هند الشيء الكثير مما تخرجه بعلبك مؤونة لبعض الشتاء ، وخصت الشيخ يوسف بهدية ، والشيخ يوسف هو زوج ام حسن ، يأتي بعلبك مرتين ، اول الصيف حين يحمل زوجه اليها ، وفي آخره ليرحل بها عنها ، ويمكث في كل مرة اسبوعا . وابو حسن هذا مشهور بالتقوى ، يأبى الا ان ينقل امرأته بيده ، من البيت الى المصيف ، ومن المصيف الى البيت ، وعنده من مقتضى الدين ان لا تقطع المرأة الطريق بين مدينة ومدينة في سيارة او في قطار لوحدها وعيون الناس ترمقها ، كيف وهي امرأة شيخ . والشيخ يحب امرأته ويغار عليها ، فيستأجر لها غرفة في بيت بسيط طيب السكان ، لا يدخل اليه الرجال ، ولا تهب عليه

رائحتهم ، ويرى انه لا بأس عليها من عشرة النسوان ، فاذا اطمأن الى هذا كله ، تركها في ذمة الله تستجم كما تريد ، وسافر على بركة الله والايمان يشرح صدره ، ليغيب عنها شهور الصيف .

وقد تحلى الشيخ يوسف بالكثير من الصفات الممتازة التي لم تتوفر لغيره من اقرانه ، فهو مشهور بالورع يغض الطرف حياء اذا مر بامرأة ولو انها محجبة من الرأس الى القدم ، وعصم لسانه فما سمع يتكلم عن احد بسوء ، يحفظ الحديث ، ويخلطه الى آي القرآن الكريم حين يستشهد ، ويحذق قواعد علم النحو ، ويقرض الشعر ايضاً ، ويكتب وما يحسب الشيخ انه يكتب كما يكتب غيره ، ولكنه يكتب للمحبة فيؤلف بين القلوب ويرفع الشحناء والبغضاء منها ، ويزوج الاضداد ، وما عرف عن الشيخ انه خط حرفا بقلم لضر وهو الى جانب هذا كله ، ينظر في الطالع ، ويكشف عن السعد والنحس ، وينبش عن الخبيئة والسرقة ، وله زبائن كثر يرتادون بيته كل يوم جلهم نساء بل كلهن ، والشيخ غير كلف بالدنيا وغير طامع بمتاعها الزائل ، فاجره على قدر المشقة وفي سبيل مرضاة الله ، فهو صغير لصغائر الامور

وكبير للكبائر ، وليس له من الدنيا الا بيت وبستان اشتراهما مما فتح الله عليه من اقدار الناس ، يخط سطورها كما يريد ، فيبدل السعد بالنحس ، ويقلب الشر الى خير ، يسكن البيت هو وزوجته وابنه ، ويأكل من الهدايا ، واما ثمر البستان وما تنبت الارض فيبيعه ، ويكتنز الدرهم فوق الدرهم ليشتري اذا هبت الريح على ما يهوى بستان جارته العجوز وقد اشتهاه منذ اول نظرة ، فيدخله في ملكه . ويبكر الى صلاة الصبح وقد شمر عن ساعدين مفتولين ، وكشف عن رأس انزع ، يستر اعلاه قميص وادناه سروال من الخام ، في احدى يديه ابريق ، ويده الاخرى على لحيته ، يحك بها ويسبح ربه بصوت عال يسمعه الجيران ، والشهرة تنفع حتى في العبادة ، فاذا فرغ من تعبده ، وجلس على دكته في المنظرة ، رأيت الشيء الكثير من الوقار بين جبة ، وعمة وسبحة .

وقد فطن الشيخ بذكائه الى مستقبل ابنه ، فنشأه على غير مثاله ، وهو لا يحب ان يكون شيخاً ، وحجب عنه اسرار صنعته ما قدر ، وارسله الى المدرسة الحديثة ، وهو طامع ان يرى منه يوما طبيباً او مهندسا او محاميا ، ويفضل

الشيخ المحاماة على غيرها ، لانها تتطلب لسانا ذربا يجمع البيان الى الفصاحة ، ويكون الولد قد ورث شيئاً منها عن ابيه ، فتظهر صفاته فيه على وجه اتم ، وفي هذا حياة جديدة للاب وتغذية لعنجهيته ، ويكون الولد سر ابيه . والمحامي من جهة اخرى كثير الالتصاق الى الشعب ، يعيش بين مصالحه ومشاكله ، وقد اصبح المستقبل في ايدي الشعب لا في ايدي زعمائه . والشيخ يسوف بانفه رائحة الديموقراطية وهو مؤمن ان موجتها جارفة ، بل ان ايمانه بها اشد من ايمانه بنسبه الذي طالما دل به وهو يرتفع الى آدم بسلسلة من الاباء شريفة . والشيخ وان يكن قد فصل بينه وبين ابنه بحجاب فاصبحا يعيشان قريبين بعيدين ، ويعرف الولد عن مدرسته ومعلمه اكثر مما يعرف عن بيته وابيه ، الا انه اشرك امحسن في كل شيء ، فكانت داعيته التي لا تعرف هوادة ولا كلاً تبذل في سبيله ما اوتيت من دهاء ومكر ، وتسوق الى غرضها حتى صداقتها ، وقد حفظ الشيخ لزوجته مكانتها فبادلها السر بالسر ، ولكنها بئر عميقة خرساء ، فاذا لم يكن من خوف على اسرار الزبائن ان تباح ، فان الخوف كله ان تبقى تلك الاسرار بين شفتي المرأة ، تلاظها الى الوجود فضيحة

وعاراً ودما حين تريد .

ذلكم هو الشيخ يوسف ، مثال التقوى الحي ، وتلك هي زوجته ام حسن كما خطرت ببال عمر وهو يحاول الاحتيال على هند . ولم ير عمر بدأ من الالتجاء اليها ، والمرأة اقدر من الرجل على حل عقدة المرأة وعلى تفهمها . وكان عيد الاضحى بالباب ، ومن العيد وسيلة ، فجمع اطراف نفسه وتحزم بشجاعته كأنه يركب خطراً ، وذهب اليها وهو يود ان لا يجد الشيخ في البيت ، ليتسنى له ان يجتمع الى صديقة هند في خلوة ، ويدور على الحديث بلسانه الناشف من الحياء كما يريد .

حاجة ملفقة

الساعة الثانية عشرة واليوم يوم جمعه ، ولعل الشيخ يوسف يؤدي صلاته في الجامع ، ويستمع الى الخطبة ، فاذا عاد الى البيت عاد متأخراً . واخذ عمر يطرق الباب بالحلقة طرقاً ضعيفاً متردداً ، ويلفق سبباً لزيارته اذا وقع على الشيخ ولم يقع على ام حسن ، وكان يسترق السمع باذن مرهفة ، ويكاد يرجع على عقبه لو لم تعلق يده الى حلقة الباب وتشد عليها ، الى ان اسعفه طرق قبقاب على البلاط كان يقترب منه ، فلما صاقب الباب تلاشى وراءه ، وارتفع مكانه صوت امرأة شامي بـ (مين) .

استقر قلب عمر الخافق على الصوت الناعم ، فهندم ياقته وتنحنح يستعد للجواب ، واذا بالباب يشق ، وتطل عين من خصاصه .

اوه عمر افندي !

نعم ، يا سيدتي عمر ، وهل يؤذن لي بالدخول ؟

مية اهلا وسهلا . تفضل ورح الى القاعة رأساً ، وانا ارد علي الباب ، لا تتطلع ، بعد نتفة من الوقت يرجع الشيخ .

ولم يطل عليه الانتظار حتى جاءت ام حسن بالقهوة وعليها ملاءتها السوداء تحجبها من قمة رأسها الى موضع الحجل منها ، كأنها مهيأة للخروج من البيت ، فما يظهر منها سوى وجهها .

قال عمر : كنت اود ان ارى الشيخ ، واستفتيه في قضية عرضت لي والتبس علي حكمها الشرعي ، فما لنا ولها اذا لم يكن موجوداً ، هل ستقضين صيفك عندنا هذه السنة ؟

— من كل بد ، وانت تعرف اني احب بعلبك واهليها وكل شيء فيها ، ومشتاقة الى هند ، قلبي يغلي عليها .

قالت هذا وتفرست في وجه عمر لترى تأثيرها فيه . فقال لها :

— لم لا تدعينها الى العيد فيبرد قلبك ؟

قالت : وقلب ثان ؟ وضج الضحك في فمها وفي عينيها ؟ ضحك خبيث .

قال عمر : يا لك من سخية ، لقد طال غياب الشيخ واني مشغول ، فالى العيد .

ولما صار الى الشارع التفت الى الوراء ، فتخايل له وجه ام حسن على خصاص الباب ، مكشراً عن فم يطفح الخبث على شدقيه ، بعينين كأنهما تقدحان شرراً ، فقال في نفسه : يا لها من شيطانة ! وسر سروراً يخلجه الخوف .

جاء العيد ، فقام عمر بزيارة للشيخ يوسف ، عله يقف على خبر من هند ، وكان منزل الشيخ يكتظ بالمعيدين ، فلم تتح له فرصة ليرى ام حسن ، وطال به المكث فهم بالانصراف ونفسه مترعة بالفشل ، لكن المرأة التي كانت ترقب القادمين والذاهبين من وراء الزجاج لم تترك الفرصة تفوتها ، فشقت درف النافذة ، وازاحت ستارتها وهو على عتبة الباب ، فشاهد هنداً تبسم له . وخطر الموقف فلم يشأ الرجوع الى مجلس الشيخ لئلا تخالج احداً ريبة فيه ، فواصل سيره لا يدري كيف يدعس الارض . وكان البيت منزويا بعطفة زقاق ضيق ، يصله بالجادة ويبعده عنها . وكان الزقاق فارغاً من الناس ، فوقف هنيهة بين جاذب العودة وبين دافع السير ، وفتح باب الشيخ وهو بعد في حيرته ، واقبلت

الخادمة تسعى اليه ، وهي ولد لا تتجاوز الثامنة من العمر . قالت : «تقول لك معلمتي، شرف في الليل ،وهذا مفتاحك» ولم يتردد في اخذ المفتاح من الولد لئلا يستريب ، وقد لا يستريب الولد ولكن سذاجته اشد خطراً من رشده احيانا ثم نفح الولد بشيء من كيسه وانصرف وهو يحل هذا اللغز الذي عمي عليه حين بدهه . واخيراً لا بد ان يكون هذا المفتاح لباب بيت الشيخ ، وانها لحيلة شيطانية، وخدمة جليلة توديها له ام حسن ، ومن اجدر منها بتحدي الابالسة ، اذن فلينتظر الليل .

واقبل الليل وعمر يتنقل بين حانة ومطعم ومقهى ،ويده على جيبه يتحسس المفتاح وكأنه يضغط على موضع ألم منه او يحمل جريمة لا يعرف اين يرمي بها ، ولو انه سئل من اين اتاه ، لكان من الصعب عليه ان يجيب عنه ، ومن العجب انه كان يتوقع ان يسأله الناس الى اين يذهب في مثل تلك الساعة ، ولم يسهر الى الهزيع الثاني من الليل على غير عادته؟ الى غير ذلك من الاوهام التي كانت تجول في رأسه ، وهو يجتاز الطريق الى بيت الشيخ ، ولكن واحداً لم يفعل ، ولا شك باننا نعيش في انفسنا اكثر مما نعيش في عيون الناس

وفي رؤوسهم ، وبصور يختلف بعضها عن البعض الاخر كل الاختلاف .

واخذ عمر يتفحص الباب بيده لعله يعثر على القفل وهو شديد الحذر ان لا يأتي بحركة توقظ الجيران ، وقد يكونون راقبين قدومه ، او قد يكون الشيخ نفسه كامناً له وراء الباب ، حتى اذا اطل بوجهه الخائف هجم عليه واخذ بتلابيبه ، وساقه ذليلا خانعا ، وشهره ، ويا للعار ، ولكنه كان يغامر لاجل امرأة ، وكان دمه يغلي في شرايينه ، فلم ينكص حتى كان له ما يريد ، وادخل المفتاح في القفل واداره ، فصر صريراً خفيفاً تخيل لعمر ان الدنيا تدوي فيه فانصت كأن طائر الموت يرف بجناحه فلم يسمع شيئاً . وتدافع الباب تحت يده فدخل الدار ، واغلقه عليه ، واخذ يسترق الخطى ماشياً على رؤوس اقدامه ، فاجتاز صحن الدار ، وترقى في السلم درجاته الخمس حتى جاء الايوان فالصق جسمه الى عامودة ، واجال في الابواب نظراً ، فوجد باب القاعة قد شق احد مصراعيه عن الاخر ، فولجها .

الفاجعة الاخيرة

لم يكذب عمر حدسه ، فقد جعلت ام حسن من القاعة حجرة نوم لهند ، وجهزت لها فراشها في الزاوية الغربية لئلا يرى من الباب المطل على الايوان ، او من الباب النافذ الى غرفة مجاورة ، ووضعت لها بالقرب منها شمعداناً ، ضاءلت شعلته حتى ما تكاد تبين وقد تكون ارادت ان تقتصد في نور الكهرباء ، وقد تكون ارادت شيئاً غير هذا ومهما تكن ارادتها خافية ، فان فكرة الشمعدان جميلة فاذا اردت ضاءلت شعلته ، واذا شئت كبرتها ، وتنقله من مكان الى آخر ، فتضعه حيث تريد له ان يكون ، ثم ان شعلته النائسة تلقي على الاشياء نوراً تتراقص الاخيلة عند اهتزازة ، فيخلق في المكان جواً تطوف به مواكب الاحلام .

وكانت هند تحلم في يقظتها فما احست وجود عمر في

الغرفة حتى هبت اليه تعانقه ، وهي في خيلع حريري وشاء .

وانتحر العتب حسداً بين الضم والقبل .

ولم تنس ام حسن ان تفكه الحبيبين فتركت على صينية شيئاً من الموز ، والليمون وتفاحة واحدة . واراد عمر ان يداعب هنداً فقال لها : ان صديقتك سخيت علينا بالموز والليمون وبخلت بالتفاح ، واما الموز فقد اطعمنا منه الشيء الكثير وفاتته الشهية . واما التفاحة ، فاني طامع بها لنفسي ولك ما تشائين من بعد ، وقديماً اوصى الحكماء بالتفاح . قالت : وحكماء اليوم ايضاً ، واخذت التفاحة بيدها ، وهذه التفاحة من ثمر الدار ، بل آخر ثمرة في بستان الشيخ ، ترعرعت وحيدة لا اخت لها ، تستحم عند الفجر في الطل كل يوم وتتنشف بخيوط النور حين تطلع ذكاء ، والشيخ يتوفر على العناية بها ، حتى اذا رآها طابت للاكل قطفها ، وكان ذلك يوم امس وبالغ الشيخ باكرامه اياي فقدمها لي ، وسوف لا اطعمك منها . قالت هذا باسمة وادنت التفاحة من فمها وجكرت تغاضبه ، فهم باغتصابها فعضت عليها باسنانها ، فما تلقفها بيده حتى كانت انتزعت لقمتها ، وراحت تعلك وتزدرد وتضحك . فقال لها : اين اعض ؟ قالت : حيث

تشاء . فقال : موضع اسنانك . وعض وراح يمضغ هو الآخر . ثم قال : كم هي لذيذة هذه التفاحة ، فقالت : لقد كبرت اللقمة واخاف عليك ان تغص . قال بل تخافين عليها ، هاتي لقمة ثانية مقشرة ، قالت : لا ، لقد اوصاني الشيخ بالقشر ، وقال ان كتبه القديمة مليئة بالكلام عن منافعه ، ثم انه رقاها لي ، ورقية الشيخ تشفي الاوجاع ، وتحجب العين ، ولها منافع اخرى ، وحذار ان تهزأ ببركة الشيخ او تسخر من علمه .

واكلا تفاحا غير مقشور .

واخذت يد الصبح تنضو عن الاشياء اثوابها السوداء ، وغور نجم السماء ، واستيقظت الحركة في السابلة ، وهب عمر الى ثيابه يلبسها وقال لهند : لقد غمرتني امحسن بكرمها واحب ان ارد لها هذه اليد التي صنعتها عندي ، قالت : لا تعجل ، انها صديقة لي ودود ، واعرف من امرها مثل ما تعرف مني ، تحب ابن عمها مختاراً ، وهو نجار ، فاذا ماعازها مسمار دعته اليها .

— فيضربه انى تشاء ؟

— لا اريدك على هذا المجون .

قال عمر : يا لصداقات النساء ما اعمقها . واحسب ان في الصداقة العميقة خطراً ، اما انا فلا اعرف من اصدقائي الا مظاهرهم ، وما حاولت مرة قط ان اكشف عن دخائل احدهم ، واحسب ان صداقة من هذا النوع تدوم اكثر من غيرها ، قالت : لا عليك ان تفزع فودعها وتسلل .

وكانت ام حسن تتفقد هنداً المرة بعد المرة فتجدها نائمة فلا توقظها ، وتجد القاعة ما فيها من اثر غريب ، سوى بقية انين لاهث ، كانت هي وحدها تحسه وتكاد تسمعه . ولما ضحا النهار دخلت على هند فالفتها خاثرة وقد افاق عنها النعاس ، فاكبت عليها تقبلها ، وتعانقتا لحظة ثم سألتها ام حسن بشيء من اللهفة : هل اكل التفاحة ؟ اجابت : لقد اكلناها معاً ، والحجاب ؟ وضعته في طربوشه بين الجلد والقش بعد ان بسطت الورقة جيداً ، وجعلتها للوراء فيه واحكمتها وهي صغيرة الحجم تضيع عن حسه .

— حسناً فعلت ، لقد كتب الشيخ على التفاحة اعظم باب في المحبة ، وسترين فعلها فيه ، حين تصل الى قلبه .

— لقد رأيته ولما تصل .

واما الحجاب فسيخلط عقله في حبك حتى يجن .

— لهذا وضعته فوق رأسه ، وليكبس عليه ..

وراحت امرأة الشيخ تفتح النوافذ للهواء لان جو الغرفة المفعوم بالحب يثير اعصابها ، وطوت الفراش وارجعته الى طاق في غرفة اخرى ، واعادت القاعة الى حالها الاول .

هكذا تصرمت البارحة من سلسلة العمر ، وامحت معالمها ، لكنها عاشت في ذاكرات ثلاث ، بابراد مفوفة موشاة ، وتعيش ما يشاء لها الخيال .

لم يكن عمر ، على موعد العودة الى بيت الشيخ ، غير ان الحب لا يعرف موعداً ، ولا يقف عند حد ، بل يرى اجزاء الزمان وقفاً عليه مهما دقت ، يتصرف بها ابتغاء اهوائه ومرضاة للذاته . فما كادت الشمس تتكبد السماء حتى خف الى ثيابه يلبسها ، نازعا عنه كسل النعاس ، وشعر بالجوع يقرصه ، فقعد الى المائدة يتناول طعامه بشره ، قد امتلأت معدته ، لكنه ما يزال يحس فراغاً لا يعرف اين هو منه ، كأن البارحة اخذت منه الشيء الكثير ، ولم تعطه شيئاً ، وهو بحاجة بعد الى ما يسد به هذا الفراغ فاين يجده ؟

مسكين عمر ! هل يطلب مستحيلا ، ام ان كل

دوائه في قطعة من (البفتيك) الدامية ؟ وفي قليل من الفاكهة والحلوى ؟

لئن كان في التخمة شفاء المحبين ، فيا سخف الحب ، ويا هون من يهوى !

اذهبي يا امراة

كانت الشمس قد زالت عن كبد القبة ، حين طرق عمر باب الشيخ ففتح له ، ذهب تواً الى القاعة ، ولشد ما كانت دهشته حين رأى هنالك فارساً ، قد جلس الى الشيخ وامرأته وهند ، وهم يشربون القهوة ، وفارس يتنادر عليهم بحديث عن مغامراته ، وهو ممن اشتهروا بشجاعتهم ، وركوبهم الخيل والليل ، في سبيل القتل والسلب ، وفي سبيل الحب ، حتى قيل ان صداقة قوية تربطه بهند ، الى ابعد حدود الصداقة ، وشتها الالسن النمامة ، وصبغتها باللون الذي تريده القصص ، التي تدور على الشفاه همساً في المجالس .

وكانت ام حسن وهند في ملاءتيهما ، كأنهما قادمتان من زيارة ، او تستعدان لها . ولم يمكث فارس طويلاً ، فاستأذن وانصرف ، وراح الشيخ يشيعه الى الباب ولم يرجع ،

ودخلت ام حسن الحجرة الثانية ولم تعد ، وظل عمر وهند وحدهما .

وامحت كل صور الحياة من عيني عمر ، لتقوم مقامها صورة فارس ، فما الذي جاء به الى دمشق ، ثم الى بيت الشيخ ؟ واخذ يمضغ هذه الفكرة ويحاول ان يبتلعها فتقف شجى في حلقه فيلفظها اشد مرارة واكثر ماً . لا ، ليس للدنيا ان تطلع عليه بسبب مبرر ، وهند ! هذه المرأة التي تنظر اليه بعينين هادئتين ، اليست شريكته في الاثم ؟ اخذ الدم يغلي في عروقه ، فهب عن مقعده وشرع يمشي بخطى راجفة ، يكاد لو اصابته نفخة ان تقذف به الى الارض ثم اسرع خطواته وقد احس جسمه يمتلىء ، واعصابه تنتفج صار كتلة تنفجر لو مسها الهواء ، بل تكاد تنفجر على نفسها واحست المرأة الشر ، فطالعتها كبرياؤها ، واخذت تجمع نفسها ، وتلملم قواها ، وتحجز دمعها ، في آن واحد ، وقالت له : ما بك ؟ رأيت سحنتك قد تغيرت مذ دخلت علينا ولم ار سبباً يحفزك ؟ فالقى عليها نظرة كلها احتقار ، وقال :

— وفارس ، ما الذي يصنع هنا في دمشق ، وفي هذا البيت ، والى جانبك ، او تظنينني ابله الى هذا الحد ؟ الم

يكفك ان دنست حرماً نسجت بردته من شغاف قلبي، حتى حملت عشيقك الاول الى نزهة على اطلال حبي ؟ وكأن هذا الزيفان لم يشبع نهمك ، فرحت تفقسين في انفي دنسك لاحمل رائحته الكريهة الى الابد . اغربي عني يا امرأة ! ان الاربعين سنة تجتمع كلها في وجهك الان ، فينهزم امامها سحر جمالك ، وتظهر غضونك وتبدو بشاعتك . لقد مات الماضي فما عدت ارى عليك رائداً من طيوفه، واقفر روضك فلن يرف جناحي بمغناه بعد اليوم . نحن ابناء الساعة ، بل ابناء الغد ، ولكن لا ، انت لا تكونين للغد الا فريسة وفريسة هزيلة تنعثر بها اللذائذ الهاربة ، ولا تشبع واحدة منها ، فالحقي بصاحبك، ذاك الذي كان ينتظرك وتنتظرينه . لقد اردت ان تكوني عاشقة فلم تقو روحك على السمو في اجواء الحب ، واحتمال فضيلته ، فصرت عاهراً تتسكع على مآدب اللذات وتقتات من فتاتها القذر ، وشتان بين الحب والفجور ، فلنفترق .

كان عمر ينفجر بغضبه والمرأة لا تجيب ، فيزداد سعيره حتى اذا خيل اليه انه يسمع صدى تحطم كلماته على سكوتها تجمعت الاهانة زبداً على شدقيه فرمى بها وجه المرأة، وتركها

في ذهول وحيرة .

دنقت الشمس ، فانوارها عليلة صفراء تزيد في كآبة المساء ، وللأمسية هينمة ، تدعو الافئدة فتنزع اليها من حنايا الضلوع ، تشهد موكب الشفق الراحل ، وتغرق في غمامة السر الذي يغمر الكون بعد قليل . وكان عمر يشعر كأنه قطعة من المساء ، انفصلت عنه ولا تزال مربوطة اليه فيكاد يتلاشى على جرسه الخفي ، ويذوب في كآبته ، ويدلف معه الى العدم ، وكان بين الفينة والفينة ، يخنق نفسه بالخمرة ليمنع عليها ان تفيض مع انفاسه من فمه ، يريد ان يبسط لها في الاجل ، دقائق معدودة ، والعتمة تنشر اكفانها .

في هذه اللحظة استيقظت هند فيه ، فاوحت اليه كره النساء ، فكان يمر بهن شائحاً بوجهه عنهن ، وكيف يهرب منهن ، وهن في كل مكان منه في رأسه ، وفي قلبه ، كره ام احب والبغض والحب طرفان متصلان الى منبع واحد ، او جزء من كل ، وقد يكون الاول بدء الثاني ، وما علينا ان لا يكون ودخل عمر ، الى حانة في منعطف من ساحة المرجه ، فيها ابنة سمراء حلوة الملامح ، تساعد اباها على عمله ، وهي في الربيع الخامس عشر ، في محاسن لم تنشق عنها اكمامها ، ولم

يفح عبيرها . اترعت له الكأس ببسمة ومالت عنه الى ابيها تضحك له ، فيضحك لها ، بعينين مزهوتين ، تفيضان حباً وحناناً . ان سلوى تقوم بواجبها ، غافية عن الحياة ، غافلة عن نفسها ، تنمو وتحلو تحت عيني ابيها ، وتغتبط وتسعد في رضوانه ، لا تشبه هنداً في شيء ، برغم تماثل الثياب ، وتجاوب العين والانف والفم ، اذن ، فليس للبنت في فجاجتها ان تزاحم المرأة في نفسه .

ولكن ما الذي يجعل المرأة والمرأة تختلفان كل هذا الاختلاف ؟ فضول غريب اخذ يراوغه فراح يسعى وراءه يريد ان يغذي به بغضه اللجوج ، يجب عليه ان ينتقم من المرأة التي نكثت عهده وخانت وده ، بامرأة مثلها ، والنسوان سواء صور من لحم ودم ، قبيحة ان هزلت ، قبيحة ان سمنت

واستوقف اول عربة مرت ، وكانت عتيقة مفككة الاوصال ، يجرها حصانان ، ازرق ، وكميت ، وكلاهما هزيل ظالع يتحامل على الاخر ، واصعدت العربة في الشارع تترنح على بلاطه الاسود ، ولها قعقعة وجرجرة تصم الاذان ، حتى اذا جاءت السنانية ، التفت السائق ، فرأى عمر لا يشير اليه بشيء ، فادرك قصده ، ووجهها على عادته ، الى السوق .

سوق المومس

اذا جاء الليل ، بطل البيع والشراء في اسواق المدينة وانصرف الباعة والتجار كل الى شأنه الخاص ، وشئون الناس تختلف باختلاف الناس ، فتجد المقاهي امتلأت بروادها ، والحانات غصت بزبائنها والبيوت أنست باصحابها وترى فيما ترى سوق المومس ، قد حفل بالناس من جميع الاجناس ، كانما هو الموسم وكأن لكل ليل حصاداً جديداً .

فتحت ابواب المواخير ، وتألقت فيها الانوار ونشرت السلع ، واي سلع ! مخلوقات ، ساكنة متحركة ، عابثة عابسة فرحة متألمة ، وهي في كل حالاتها لا بد لها ان تعرض عليك بضاعتها ، بضاعة خرساء ، من لحم ودم ، لا تثير فيك نزوة ولا تحرك شهوة ، ومع ذلك ، فانت تقف على ابواب الحوانيت كما يقف الناس في رجفة النور الاحمر ، وتنكر على نفسك

موقفك ، ولكنك لا تبرحه الا لتنتقل الى ماخور آخر تقف ببابه ، وما عليك ، وانت متفرج ، وغريب لا يعرفك احد تتعلل بهذا الخلق المحشور لا تربطك اليه صلة ولا تمت بنسب لولا ان طريقاً واحدة جمعتكم الى اهدافكم المتباينة بذاتها ، المجتمعة في هدف واحد تهوون اليه من عالم البهيمية ومن عالم النفس على حد سواء .

ويدعو (الفونوغراف) للرقص ، فتنعقد الايدي على الخصور ، وتمور الارداف تحت الغلالات ، ويرقص النور . ولائم اعراس للعهر قد بسطت ، ويهتف هاتف اللذات : العيش ياجوعان ! فتزف الى الدعوة وقد تحرك فيك الجوع فيهيب بك التعفف فتحسبك شبعان وما انت بشبعان .

وما هي الا لحظة حتى يقبل الزبائن ، فتراهم راقصين هنا ومنتظرين ، ومتفرجين هناك ، الصقوا وجوههم لى زجاج النوافذ و حدقوا باعينهم .

ويتغير الجو ، وينقلب من ضعيف ممتهن الى قوي محبب وتحس الحدود ارتفعت بين الفضيلة والرذيلة ، وتعرت الحياة من تقاليدها الخانقة واستوى البشر في اشتراكية طبيعية ، فضائلها ومعايبها بلون واحد . وانت شيء هائم في هذه

الدنيا ، دنيا السوق تسيطر عليك بنواميسها ، وتسوقك اقدارها ، قد فنيت شخصيتك في شخصيتها ، وذابت الوانك في الوانها ، فوردت موردها ونمت في مضاجعها .

*

ما اسمك ؟ — سألها عمر وقدقذف بطربوشه الى الديوان الغارق في الوسائد ، واقتعد حافة السرير .

نينا . اجابته وهي تهم بخلع غلالتها .

— اسم جميل ، ولكن ابقي على هذا الثوب يا نينا ! وهاتي اسقينا . الان خمر ، وانا عطشان ، لا احب ان ارى كأسي فارغة ، ولا اطيق ان اراها مترعة .

فأشربي نينا ! اعطنيها . خذي ، هاتي .

*

هل اتى عليك هذا الاسراء الذي لم تحس له جلبة ، ولم تتغير عليك فيه المشاهد ، حتى اذا اخذ النوم يتسلل من جفنيك ، طافت عليها روءى اشتبهت عليك ، فرحت تتحسس جوانب فراشك ، فاذا هي اشياء غير ما الفت ، فتعود تدور بعينيك على ماحولك ، فترى الاشياء تخرج من ظلالها وتأخذ الوانها فتعرف انك في عالم جديد لا عهد لك به من قبل ،

فتضطرب .

هذا ما اتى على عمر في صباحه ، ولم ينتبه الى امره الا حين رأى فوق الديوان مخلوقة جمعت بعضها في بعضها ونامت كأنها وسادة من وسائده .

هو اذن في بيت دعارة ، فما الذي جاء به الى هذا الحي الغارق في سكونه ونومه كهذه المخلوقة التي على قيد خطوة منه ، ولم يهدأ اهل هذا العالم ويأووا الى مضاجعهم حين تستيقظ المدينة باجمعها وراء جدرانه التي لا يتجاوز عرضها الشبر الواحد ؟

ألأن هذه المخلوقات المنبوذة لا تقوى على الحياة في النور ، وعلى رؤية عارها معروضاً على الانظار تحدق اليه وتزور ، فتؤثر ان تختفي به . ام لان الناس الولعين بالظهور باثواب الفضيلة تضيق عليهم انفاسهم ، لا يجسرون على خلع اثوابهم تلك الا في جنح الظلام ؟ فيختلط هذان العالمان في الليل ، يلقم كل منهما الاخر ويحدب عليه ، ويتجافيان نهاراً على غير كره وضغينة .

ها ان النهار قد ضحا وعمر في حيرته ، يرمي بنظره تارة الى المرأة وتارة الى نفسه ويتحسس جسمه ، ثم يقف الى المرآة

فيرى وجهاً اشعث كده الجهد ، فيرجع الى الامس يوغل في دقائقه واجزائه ، ويتتبع خطواته فيه ، علّه يذكر كيف بدأ برحلته ، ويدرك اين تنتهي به ، وانه لفي ذلك والشمس تحبو الى صدر القبة ، ويكاد النهار ان ينتصف ، والمرأة نائمة وقد نشرت طياتها الان ، فبان فخذها ، واندلق ثديها فرأى عمر شيئين منهوبين لا حسن فيهما ولا رونق ، عصرتهما اللذات ، ومصهما الفجر فعادا حثالة تتقزز منها النفس ، فلا ماء ، ولا حياة ، ولا رمق .

اشاح بوجهه عن المرأة واصطنع حركة توقظها ، ونظر في المرآة فراها تمسح باصابعها غشاوة النوم عن عينيها وتتناهض كسلى ، وهي تقول له بصوت لا دعارة فيه ولا غنج ولا كذب ، وقد يكون فيه شيء من القلق لم يحسه عمر اول وهلة « كيف انت ؟ اما سكرة انكليزية كانت ، انطفيت وانت تشرب ، لكن ما هي من عندي ، موسسة من قبل عذبتني حتى نزعت ثيابك ونومتك ، ثم صرت تشت وفزعتني » كانت تتكلم وعمر يأنس رويداً رويداً بالنظر الى المرأة التي عنيت به ، وما وصلت من كلامها الى هذا الحد حتى احس ان شيئاً منه ، وقد يكون سره الذي يريد الاحتفاظ

به لنفسه ، بين شفتيها اليابستين وقد تلفظه بلا تهيب كالقشرة الهينة ، فقطع عليها الكلام بضحكة ارسلها عالية وقال لها :

— والان ما اسمك ؟

— نينا .

— نينا ، نينا ... اسمع دوي هذا الاسم في اعماق ذاكرتي فأين عرفته ؟ لعل ذلك امس ، فما ابعد الامس بل ما اقربه وما اقساه ، لقد كنت فظيعاً يا امسي ! وتعود الي الان كما كنت لتملأ نفسي بالالام المبرحة ، لا ، نينا ! لقد ازعجتك الليلة بلا ريب ، وطردتك من فراشك ، وربما اسمعتك كل ما تحمل نفسي الحاقدة من سباب وشتيمة للمرأة ولوثت هذا الجو الذي لم يعرف الا اللذة العارية باقذار الحياة المقنعة ، واراك لم تغضبي ، فانا مديون لك بالشيء الكثير ولهذه الحجرة التي جلجلت آلامي فيها ، فحنت عليها . والان اين طربوشي ؟

— هذا هو ، وارى فيه ورقة مطوية .

اخذ الورقة بغير اهتمام ونشرها فاذا فيها :

« اللهم يا من الفت بين النار والماء ، وسمكت بلا عمد السماء ، وجعلت من الجمال فتنة للناس ، واغريت بهم الوسواس

ألف بين قلبي عبديك (ع م ر ه ن د) وقهما العذاب، يوم الحساب ، آمين » .

وفي ادنى هذا رسم دائرة وشمس ونجم وافعى وخطوط كالتي يصنعها المفايل باصبعه فوق صفحة الرمل .

وخطرت ببال عمر تفاحة الشيخ وتمثلت له هند تعضها فيعضها ، فقال بصوت سمعته نينا وهو يضغط على يدها مودعاً :

— مسكينة .

وقالت له وهو على عتبة الباب : نسيت ان تذكر لي اسمك .

فالتفت اليها باسما وهم ان ينتحل اسما لغيره ، لكنه رجع الى نفسه وقال جاداً : عمر ، ومضى .

اخذت نينا تردد هذا الاسم بين شفتيها ، وقالت : هل احس عمر شقائي حين قال لي : مسكينة ، مسكينة ؟ ان لهذه الكلمة دوياً في اذني كدوي الصفع ، لكن فيها شيئاً من العطف نحن اكثر الناس حاجة اليه ، نحن اللواتي نبذنا المجتمع وسمانا ساقطات ، لقد جار علينا المجتمع وانصفنا الفرد ، فنحن بحق مسكينات ليت بؤس هذا الفتى يحتدم ويقذفه الى هنا مرة اخرى

فاسمع آلامه تجلجل فوق هذا الفراش الذي لم يعرف الا عربدة اللـذات وانتظر كلمة مواسية تتساقط من فيه فتتشربها نفسي كما تتشرب الارض الجافة رذاذ الغيث

ومضى عمر الى بيت الشيخ لعله يرى هنداً ويستغفرها عما فرط منه ، وهو يردد في نفسه : مسكينة ! انها ما تزال تحبني ، وتستعين علي بالرقى والتعاويذ ، لقـد ظلمتها حين اتهمتها بالخيانة ، هند ! هند ، عفوك ! لن اعود الى تمثيل تلك المأساة ابداً .

وطرق الباب ففتحته الخادمة الصغيرة ، التي اعطتـه مفتاح البيت بالامس . ولما وقع نظرها عليه قالت له : انتظر لك مكتوب . وراحت تركض ، فكان يصغي الى ضرب قبقابها على البلاط كأنه يقع في فؤاده فيتهافت تحته ، وعادت تدفع اليه الكتاب قائلة : سافروا . واغلقت الباب بوجهه . فاوجس شراً ، وفضه متردداً ، واخذ يقرأ :

عمر !

لقد عملت ما بوسعي لاحتفظ بك ، حتى اني لجأت الى السحر ، ورصدت الطوالع ، وحبست على الابالسة ، فابيت علي ، واذا كنت تريد الانصراف عني الى عشيقاتك ، فكان

عليك ان تلج الى ذلك غير الباب الذي ولجت . لقد سلبت مني بقية من كبرياء واهنتني . وقد كنت اغفر لك لولا انك كشفت بيدك القاسية عن وجهي قناعه . اصحيح ان اربعين سنة تطل من مثاني وجهي ساخرة؟لا . لست اصدق وهرعت الى المرآة التي لا تفارق مثبتتي ، المرآة التي قبل ساعة من الفاجعة كنت اراه فيها ، فاعجب بجماله انا نفسي واطرب لمجده . فرأيت المرآة ذاتها تكشف لي عن وجه عتيق برزت غضونه ، وجمال مهدم ، ما كان للطلاء برغم طراوته ان يعيد اليه جدته . لقد كنت في غفوة عن هذا امر به ولا اراه ، فلما نبهت في الشك تنبهت له ، فالان احس الايام تمشي ، بل الساعات ، بل الدقائق ، واشهد اثار خطاها الجبارة على هذا الوجه و كنت لا احسب للسنين حساباً،فكل دقيقة تأخذ معها مني شيئاً .

كانت لي علالة من امل اغالب بها الايام ، فحطمتها حين حطمت لي قارورة الحب التي كنت اتطيب منها كل يوم ، فاعيش في جو تفغ روائحه العطرة ، فاحسب الدنيا عبيراً كلها .

اما ولم يبق في يدي شيء منك ، بل لم يبق لدى شيء

اعطيه كما كنت احس اني افعل من قبل يوم كنت احب وأحب -- وما اشد تبذير الحب — فسآخذ بعد الان ولا اعطي ولئن اعطي فالشيء القليل التافه ، شيئاً من الماضي لا يعرفه عشاقي الجدد ، الذين سيكونون شبابا تنقصهم التجربة فيجدون في كل موضع مني اثراً يتخلج بفنون اللذة . نعم ساختار عشاقي شبابا اشرقت بالحياة وجوههم وطفحت بالصحة اجسادهم ، فاعيش عليهم ، كما تعيش النباتات الطفيلية على الاغصان اليانعة ، امتص حياتهم ، واجدد بدمهم الحار دمي البارد ، واستوقف شبابي الراحل برغم انفك وانف الاربعين سنة .

عمر ! عمر !

لقد دفعتني الى الجريمة بيديك ، فليكن اثم جناياتي عليك

« هند »

ستر عمر رأسه بكفيه ليتقي لعنات المرأة التي احسها تنهمر عليه كالأتى فتكاد تسحقه . ورأى العار يتبرج بين سطور الكتاب ، والاثام تتنزى في كلماته واللذات ، وتخايلت له هند ، فكاد يسمع قهقهة الفجر على صدرها ، تنفق الحياة سفهاً طلباً للحياة ، واللعنة على شفتيها لا تفارقهما . فاعتلجت

الالام في صدره ، وود لو ان الارض تفغر فاها فتبتلعه ، او تقع السماء على رأسه فتدقه ، فيتخلص من الآمه ، و كم كان يريد ان يقبض على هذه الآلام بيد من حديد فينتزعها من جنبيه او من رأسه بل من حيث يحسها تتحرك وتجلجل ، فيمد قبضته اليها ، ثم يعيدها اليه معقوفة الاصابع متشنجة كأنها تقبض على الشيء الذي ارادته ، فينظر فيها فيراها فارغة فتهن قواه وتخدر اليد الحديدية وتعود شيئاً مشلولاً لا يحس له حركة ولا حياة كانه ليس قطعة منه .

لقد دفع هنداً الى الجريمة بيديه وها هي آثامها تقع على كتفيه الضعيفين فينوء باثقالها ، ثم هو لا يدري اين يرمي بحمله و كيف يتخلص من عبئه ، كأن الدنيا كلها طريق لا آخر له ، و كأنه مضطر ان يمشي في هذه الطريق ، وان ينام فيها ويأكل فيها لقمته ، وحمله على كتفه كل ما مشى خطوة ازداد ثقلا . وتملكه شعور غريب فراح يحس اعياء شديداً بنفسه ، فقصر خطاه وتحامل على رجليه والقى عليهما كل ثقله لكن رجلاه وهنتا واخذتا تتقصفان ، فعاد يشد من عزمه ويجرهما جراً ، ويلتفت الى ورائه فتتخايل له مساحبهما على الارض فتروعه ، وينظر امامه فيرى معالم نينا تلوح فيمعن

في سيره .

ما الذي كان يحدو عمر الى هذه الزيارة يا ترى ؟ ، فهل جاء الى هذا الحي الدنس ليعيش فيه بخطيئته ردحاً من الزمان بين بشر لا يعرفون الا الخطيئة ، فيتشابه معهم في العيش فلا ينكر احد عليه امره ، وينسى انه خاطىء فينسى آلامه ، ام جاء يدعو هذه القلوب الكافرة الفاجرة الى التوبة والايمان فيكفر عن سيئآته بحسنة يعملها ؟ ذلك ما لم يعرفه عمر نفسه .

دخل الى البيت فأدار نظراً سادراً بأهله ، ولما لم يقع على ما يريد سئل عن نينا ، فقيل له انها في غرفتها لا تستقبل احداً .

— قولوا لها اني ... انا .

— ولكن من انت ؟ ... وتعالت قهقهات البنات فقالت احداهن : منذ امس لم تستقبل زبوناً ، وقالت الأخرى ، يمكن عاشقة ، وقالت الثالثة ، تابت ، وتشاغلن عنه .

— وتوسل عمر الى الأم ان تبلغها ، ان الفتى الذي كان عندها ليلة البارحة يريد ان يراها دقيقة واحدة ، قولي لها ، عمر .

ذهبت الأم وبقي عمر ينتظر عودها على احر من الجمر

كان في موقف يلوى الرأس خجلا، وانظار البنات الساخرة تحدق اليه من كل جانب ، يتغامزان عليه ويتضاحكن، حتى كاد يظن ان في ملبسه او في منظره شيئاً يثير الهزء والسخرية ولو لم يكن شديد الثقة بنفسه ، قوى الايمان برسالته ، وقد شعر في اعماقه ببدئها لنكص على عقبيه ولم ينتظر .

ورجعت الأم تقول له ، اذهب اليها فأنها بانتظارك .

ومشى عمر الى نينا فأرسلت البنات ضحكاتهن خلفه فدخل الغرفة واوصد عليهن الباب .

نينا

كانت نينا واقفة وفي يدها جريدة تقرأ فيها ، وقد لبست رداء من الحرير الساتان الاسود ، ولم تتزين ، ولم تتطر فبدا وجهها بلونه الطبيعي ، وقد علته غمامة من الهم ، اما عيناها فكأنهما لاصقتان الى حلم بعيد ، يغيمان اذا تقشع ويطمئنان اذا بقي لهما . وكان في وقفتها شيء من الكبرياء المتهدمة توحي احترامك للسيدة الواقفة امامك ، وتوجب عطفك عليها .

ولم يكن في الغرفة شيء لا يتجاوب مع نفسية المرأة الجديدة ، وليس فيها من اثر غريب ، حتى كاد عمر يتعرف الى زفراته التي ارسلها ليلة امس ، ويسمع الى آلامه تباغمه ، لقد تعرفت الاشياء اليه ، فأنس اليها ، وامسى وفي امكانه ان يجد بعض الراحة في مكان سلخ فيه ليلة من

عمره قد تساوى عمراً كاملا ، فارتمى فوق الديوان مسنداً رأسه الى وسادة ، ويده الى وسادة ، ويده الى اخرى ، وتطلع الى عتبة الباب يدفع بنظره الحمل الذي القاه عنده ، يريد ان يغيبه عن عينيه ، وقال في نفسه : رحمة للحمال .

ونظر الى نينا فرآها ترمقه بعينيها الحالمتين ولا تنبس فقال لها ، عفوك ، لقد اذهلتني نفسي عن كل شيء ، ولولا لطف القدر لسقطت عياء في الطريق .

قالت : كنت انتظر عودك ، وكان بي مثل اليقين انك ستأتي ، ولست ادري لماذا ؟

قال : لقد رجعت ، واجدك تقرأين ؟

— صرت اتوق لمعرفة اخبار العالم المترامي خلف جدران هذا البيت ، وبي نزع الى الهواء الطلق ، الى الحرية ، الى النور ، لقد سئمت حياة الوحدة هنا ، واكاد اختنق في جو هذا الحبس ، تبدل على كل شيء منذ ليلة الامس وطالعتني حياة جديدة ، قد تكون ملأى بالألم والقلق ، ولكنها في كل حال جديدة ولذيذة ، او تحسب ان هذه الحياة التي نقضيها هنا ، نبيع اجسادنا لمن لا نريد ، خالية من شعور اللذة ، وقد تخلو من شعور الألم ، ولم لا ؟ حين نرانا مضطرات

ان نصانع كل جلف يقذفه الينا العالم لنشبع شهوته . او تحسبها داعية النعيم ؟ ولكن غفرانك ! قد اكون آذيتك من حيث لا اريد ، فانما ذاك الفتى الذي جاء في ليلة امس ، دامي الجرح يحمل الماً ضاجاً ، فاشفقت عليه وضمدت جرحه ، وحدبت على ألمه ، هو الذي بعث فيّ تلك الحياة ، فجعلت من هذه الغرفة التي سمعت سره في هدأة الليل وباركتها آلامه حرماً لن اسمح بتدنيسه .

— ان الفتى نفسه قد عاد اليك الآن وبؤسه اشد من امس وألمه اقوى .

واجتذب عمر نينا من ثوبها واجلسها على الديوان . ثم اخذ يديها في يديه وراح يقول لها بصوت يهزهزه الالم : نينا ، نينا ! ان سري لم يعد خافياً عليك بعد ان سمعته هذه الغرفة ووعته جدرانها الصماء ، في ساعة من العمر هاذية .

لقد كانت هند المرأة التي احببتها بقوة الشباب ، والمرأة التي تنقصتها بعسف الانانية ، والمرأة التي حفزتها الى الخيانة بهاتين اليدين بغرور الجهالة . ان هذا الرجل الوادع مجرم سفاك ، قتل اختك وجاء يجثو عند قدميك ، ولما يجف دم الضحية عن اصابعه .

هيا اثأري لأختك ، وانتقمي بي لنفسك ، من الرجل الذي هبط بك الى هذا الدرك ، ولكن لا ، لئن طردتني من هنا ، فلن اجد مكاناً يحدب علي غير بطن الارض ، ولن تكوني انت قاتلتي .

لقد اثقلت كاهلي اوزاري ، فطرحتها على عتبة هذا الحرم ، ودخلت اليك طاهر النفس مطمئنها ، لانتقل بك الى العالم الذي تتوقين اليه ، فلتغفر المرأة لهذا المذنب الضارع جنايته على اختها المرأة .

سقط دمعتان حارتان على يد عمر ، فرفع رأسه وتطلع الى عيني نينا فرأى دمعتين اخراوين طائفتين على شفيري الهدبين .

*

في مساء اليوم التالي ، عاد عمر جذلا يحمل الى نينا البشرى ، قد استأجر لها وله بيتاً صغيراً يحضنه قاسيون من خلفه ويقبل على الغوطة بوجهه ، فيشهد جلق تصبح مخضلة المعاطف ، تتفتح ازرارها بين ضحك الانهار وشدو الاطيار وتدخل في المساء الاخضر وقد صعدت مآذنها الى السماء لتصل بين شطري الكون .

وانفق على تأثيثه اخر فلس يملك ، فلو انه احتاج في غده الى طعام وشراب لما وجد في جيبه ما ينفقه ، ولم الانشغال بأمر الغد المجهول ، وقد تمت له رغبات اليوم ، وحسبه من الدنيا انه كفر عن خطيئته ، وانه انقذ نفسه من جحيمها وانقذ معها نفساً اخرى .

ما كاد يطأ عتبة البيت حتى استقبلته (الأم) بوجه متجهم ، ثم قادته الى غرفتها هي ، وقالت له بصوت في نبرته هدوء وجد : انك يا عمر ، اغويت ابننا وصرفتها عن «شغلها» منذ دخلت هذا البيت ، وانت تعلم انها تحتاج لأكل وشرب والسماء لا تنزل عليها مائدة ، وانا ايضاً بحاجة الى مال .

— انها ستترك الليلة هذا المحل الى البيت الذي اعددته لها .

— قلت لك اني بحاجة الى دراهم ، وهي مديونة لي ، ولا براح لها من هنا قبل ان تسدد دينها ، بهذا تقضي قوانيننا .

— ولكنها لم تحدثني عن هذا قط .

— سلها اذا شئت ، ادفع لي فلوسي وبارك الله لك

*

خرج عمر من عند الام يتعثر بأذياله ، فمن اين يأتيها

بالدراهم وهو لا يملك عشاء ليلته؟ وذهب الى البيت لا ليرى امه واخواته ، بل الى بيته الصغير ، الذي بذر فيه امواله وجمع احلامه ، وارتمى فوق اول مقعد وصل اليه ، واخذ يردد بصوت عليل لا يسمع الا نفسه :

المال ، المال ، ان الشيطانة بحاجة الى مال ، ما اهون الذهب المكنوز تحت ايدي العجائز القبيحة ، وما اعزه حين يراد لدفع الخطب ، ثم نهض من مجلسه وقد طفق صوته يرتفع قائلا :

« ما كنت احسب ان الدنيا تنطوى على مثل هذا »
« الظلم ، اتبيع المرأة جسدها لتقتات بثمنه ، فتخرج من »
« صفقتها جوعانة ومديونة ، لتاجرة عجوز ترابي بعفاف »
« البنات وعارهن ، بجمالهن وقبحهن وباقدارهن من يمن ومن نحس »
« على السواء ، الا بئست التاجرة ! لقد حالت اللعينة بيني وبين »
« نينا التي تنتظر اوبتى كما ينتظر المؤمن اوبة المخلص »
« سيطول انتظارها الليلة حتى تقنط ، فيشملها الاسى »
« ويشتد بها الالم ، فتلعنني هي الاخرى . رباه ! هل خلقتني »
« لاكون سبباً في بؤس من احب وفي شقائه ، ولم خلقتني ؟ »
« قالت لى هند : فليكن اثم جناياتي عليك ، فماذا ستقول »

«نينا، الآن علمت اني اخرجت كلا من المرأتين من محيطها»
« فقتلت الاثنتين، رباه ! اقسم ما اردت شراً بهما، ولكنها»
« الانانية، احببت نفسي النهمة، فنحرت على قدميها اله »
« الحب الذي تعبدته، ولما لم يروها دمه، ورأيتها تبكيه »
« كالطفل الذي فقد دميته رحت اجبل لها بيدي من »
« حثالات الحياة، الهاً صنما، ما كدت أسويه حتى جاءت »
« العجوز فضربته بكفها اليابسة فتحطم، ها ان يدي »
« فارغتان من كل شيء يصطفقان أسى ولوعة، هند، هند! »
« رحماك تعالى الي ! ارجعي الى عمرك، ها انذا اركع »
« طالباً عفوك، وامد لك ذراعين طالما ضماك، بالله كفي »
« عن هذا الضحك الساخر، ويلاه ! لقد هربت. وانت »
« نينا ! لم البكاء ؟ ان الدمع الذي تذرفينه يهز نياط قلبي »
« فكفكفي دمعك، اني آت اليك الليلة، بل الان »
« أرأيت كيف افي بالوعد، الويل لك ايتها العجوز ! »
« اذهبي من طريقي، تريدين دراهمك ؟ الدراهم تتكلم »
« فاسكت يا قلبي، الدراهم ! قه قه قه، ايتها المرابية الحمقاء! »
« لئن لم تخلي لي الطريق لأهبن رأسك برصاصة من هذا »
« المسدس، عمر، عمر ! أأنت ايضاً هنا، اراك اشعث أغبر »

« دامي العينين ، مزبد الشدقين ، لأنت اصل الشقاء ومنبع »
« البلوى ، فالى اين تلحق بي ، يجب ان تموت ومن يدي »
« هذه تموت »

*

طلعت شمس اليوم التالى متأخرة ، وشرعت العصافير تغرد على العرش ، وسرحت القطعان في المراعى .

واخذت قافلة الحيـاة تسير كأمس ، وعمر يجمع عن الارض حطامة المرآة التي صرعتها رصاصته في لحظة مجنونة .

طبع من هذا الكتاب الفاخر واربعمئة نسخة على

مطبعة الاتحاد

بيروت * تجاه التياتر الكبير

في ١٠ ايار ١٩٣٧

DATE DUE

JAFET LIB
25 APR 1978

JAFET LIB
15 NOV 1996
Circulation Dept.3

JAFET LIB
18 NOV 1996
Circulation Dept.3

حيدر الصفي
عمر أفندي
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01037833